الأستاذ أبو الأعلى المودوديُّ والحضارةِ الغربيَّةِ المُعاصرةِ

الأستاذ الدكتور صالح حسين الرقب

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلَّى الله عليهِ وسلَّم وبعد:

فإنَّ أبا الأعلى المودودي مفكرٌ إسلاميٌ عظيمٌ، وداعيةٌ كبيرٌ، كان له أثرهُ الواضحِ في الفكرِ الإسلامي، عاش المودوديُ في عصرٍ متميِّزٍ المظاهر، وتأثَّرَ بما يجري حولَه، وتفاعلَ معَه، وكانت لظروفِ عصرِه الأثرَ البارزَ في المسلكِ الذي نهجَهُ، وكانَ لهُ إطلاعُه الواسعُ على الحضارةِ الغربيَّةِ المُعَاصِرَةِ. وقام بالحديث عنها في بعض كتبه، كما بيَّنَ ما فيها من معائب ومصائبٍ، ومناقضاتٍ للعقيدةِ الإسلاميَّةِ. ولذا رأيتُ أنْ أُبرزَ هذا الجانبَ من ثقافةِ الأستاذِ المودوديِّ، كيْ يُستفادَ منها، وفي نفسِ الوقتِ نَحذَرُ هذه الحضارةِ وغزوِها الفكريِ والثقافيِ لحياتِنَا الفكريَّةِ والخُلُقِيَّةِ والاجتماعيةِ، وكي نَحفَظَ عقيدَتَنَا التي هي سرُّ قوتِنَا، وعزِنَا.

ولم يكن المودودي ليسكت على الخطأ، بل كان يبادر إلى النقد الهادف، جريئًا في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يغتر بالبهرج الكاذب، ولا ينخدع بالبريق الظاهر؛ فواجه بريق الحضارة الغربية، ودرسها دراسة متأنية، فوجدها تنحصر في العلمانية، والقومية، والديمقراطية، وهي أصنام ثلاثة صارت تعبد من دون الله، وقد أنحى المودودي بمعوله حتى تحولت إلى أنقاض.[1]

المقدمة:

لقد امتدَّ نفوذُ الغربِ الحضاريِ إلى العالمِ الإسلامي، الذي وقعَ فريسةِ الأطماعِ الاستعماريةِ الغربيةِ، وكان العالمُ الإسلامي في ذلك الوقتِ يعيشُ في حالةِ من الانحطاطِ الفكريِ والعملي، نتيجةَ إنحرافِه عن العقيدةِ الإسلاميَّةِ مصدرِ قوته ورقيِه وتقدمِه. وأصبح ما ندعوُه اليومَ بالحضارةِ المعاصرةِ صنمًا استحوذَ على قلوبِ كثيرٍ من المسلمين.

إنَّ الحضارةَ المُعاصرةَ من العقباتِ الرَّئِيسِيَّةِ التي تقفُ حجرَ عثرةٍ في طريقِ المدِّ الإسلامي، فعلى ثقافتِها ونظرياتِها تربى كثيرٌ من المسلمين، الذين يَرَوْنَ فصلَ الدِّينِ عن

---

[1]– محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ص 51.

مختلفِ جوانبِ الحياة، وفي أحضانِ هذه الحضارة تربَّى حكامُ المسلمين الذين قاموا بأعمالٍ وحشيَّةٍ – يَندَى لها جبينُ الإنسانيَّةِ– ضدَّ دعاةِ المجدِ الإسلامي الذين بذلُوا جهودَهم، وقَدَّموا أنفسَهم رخيصةً في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ الله تعالى، وإقامةِ دينِه في الأرض.

إنَّ نظريَّاتِ الحضارةِ الغربيَّةِ وأفكارَها الزَّائغةَ مازالت تُدَرَّسُ في مدارسنا وجامعاتنا الإسلاميَّةِ، وهي تَلْقَى كلَّ عنايةٍ وتقديرٍ، ويُنظَرُ إلى أصحابَها على أنَّهم روادُ الفكرِ والتَّقدم، فنظرياتُ دارون في علم الأحياء، ونظريات إيميل دوركايم[1] في علم الاجتماع، ونظريات فرويد[2] في علم النفس والتربية، ونظريَّاتِ ماركس في علم الاقتصاد، وتصورات سارتر[3] في الحياةِ والوجودِ، مازالت ذاتِ سلطانٍ قويٍ– بما فيها من تدنيسٍ لكرامةِ الإنسانِ– في موسساتِنَا التَّعليميَّة.

من أجل ذلك كلِّه سأَتحدثُ عن هذه الحضارةِ – من خلال تصويرِ المودوديِّ لها – وآثارِها الخطيرةِ في عالمنا الأسلامي، كما سأذكرُ المواقفُ الإسلاميَّة من هذه الحضارةِ، مع التَّركيزِ على موقفِ المودودي خاصَّةً.

أولاً: تصويرُ المودودي للحضارةِ المعاصرةِ

نودَّ أولاً الإشارةَ إلى بيانِ المودودي لمفهومِ الحضارة، لنَعرفَ هل تَستَحِقُّ الحضارةُ المعاصرةُ الاسم الذي أُطلق عليها، وتحتَ عنوان "معني الحضارة ومفهومها" يجيبُ المودوديُّ على سؤالٍ: ما الحضارة؟ فيقولُ: "يَظُنُّ النَّاسُ أنَّ حضارةَ أَيَّة أُمَّةٍ عبارةٌ عن علومِها وآدابِها وفنونِها الجميلة، وصنائِعِها وبدائِعِها وأطوارِها للحياةِ المدنيَّةِ والاجتماعيَّةِ، وأسلوبِها للحياةِ السِياسيَّةِ، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ ليست كلُّ هذه الأمورِ بالحضارة ذاتها، وإنَّما هي

---

[1]– إيميل دور كايم: (1808–1917م) يهودى فرنسي، كان سيصبحُ حاخامًا مثل والدِه، إلاَّ أنَّ وفاةَ والده حملت عليه مسؤولياتِ ثقيلةِ، أصبح دوركهايم مقتنعًا بأنَّ الجُهدَ والحزنَ يساعدانِ على التَّقدُّمِ الرُّوحي للفردِ أكثر من المُتعةِ والفرحِ. وإيميل دور كايم هو رائد علماء الاجتماع الفرنسيين بعد "أوجست كونت" (1798–1857) عمل أستاذًا بالسوربون، عزا إيميل دور كايم إلى العقل المشترك للمجتمع أصلَ الدِّين والأخلاق عن طريقِ إلزام الفرد.

[2]–فرويد: (1859–1939م) سيجموند فرويد، يهودى من أصل نمساوي، مؤسِّسُ مدرسة التحليل النفسي التي تقوم على التفسير الجنسي للسلوك. من مؤلفاته: تفسير الأحلام، ثلاث رسائل في نظرية الجن، مدخل الى التحليل النفسي. انظر الموسوعة العربية الميسرة 1297/2.

[3]– سارتر: جان بول سارتر: فيلسوف وأديب فرنسى معاصر، ولد عام 1905م، اقترنت باسمه الفلسفة الوجودية، أصدرام 1950م مجلة "العصور الحديثة" التي تَتَضمَّنُ أبحاثًا وجوديةً في الأدب والسياسة، أطلقَ على فلسفته كلمة "وجودية" دون سائر الفلسفات. من مؤلفاته: رواية الغثيان، سيل الحرية، ومسرحية الذباب. انظر الموسوعة العربية الميسرة 942/1.

نتائج الحضارة ومظاهرها، وما هي بأصلِ الحضارةِ، وإنّضما هي أوراقُ شجرةِ الحضارةِ وثمارُها.[1]

وإذا كان مفهومُ الحضارةِ عند المودودي لا يُطلقُ على التَّقَدُّمِ في العلومِ والآدابِ، والفنونِ وأساليبِ الحَياةِ، فإنَّه يَرَى أنَّ مَا يُعبَّرُ عنه بكلمةِ "الحضارة"، يتكوَّنُ من خمسةِ عناصر هي:-

1- تصور الحياة الدنيا.

2- غاية الحياة.

3- العقائد والأفكار الأساسية.

4- تربية الأفراد.

5- النظام الاجتماع.

وما وُجدَت في الدُّنيا حضارةٌ إلاَّ وتكوَّنَت من هذه العناصرِ الخَمسةَ. [2]

من خلالِ ما سبقَ يتبيَّنُ لنَا أنَّ المودوديَّ يَستبعِدُ المفهومُ الذي غلبت عليه مفاهيمُ الفلسفة الماديَّةِ. ذلك المفهومُ الذي يعتبرُ المجتمعَ المُتحضِّرَ هو المجتمعُ الذي وصل إلى درجةٍ عاليةٍ من التَّقَدُّمِ في مجالِ العلمِ والصِّناعةِ والمخترعاتِ، وفي نفس الوقت يزدري بالمعتقداتِ الدِّينيَّةِ والقيمِ الأخلاقيَّةِ. والمودوديُّ بهذا يردُّ على المتشدِّقينَ من المسلمين الذين يرَوْنَ أنَّ الحضارةَ هي ما وصلت إليه أُوروبا من رقيٍ وتقدُّمٍ في مجالاتِ العلومِ والصِّناعةِ والاكتشافاتِ والمخترعاتِ، بغضِّ النَّظرِ عمَّا وصلت إليه من الانحطاطِ الرَّهيبِ في الجانبِ الروحِي والأخلاقي.

والذي يطالعُ كتبَ ومؤلفاتِ المودودي يرى أنَّ لَهُ اطلاعًا واسعًا وعميقًا على النَّظريَّات والأفكارِ التي جاءت بها الحضارةُ المعاصرةُ، كما يرى أنَّ له اطلاعًا واسعًا وعميقا على أحوالِ أَصحابِ هذه الحضارةِ، وإنَّ الدارسَ لكتبِه: كالحجاب، ونحن والحضارة الغربية، والإسلام وحركة تحديد النسل، الإسلام ونظريات الاقتصاد الحديثة، والإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة. أقولُ إنَّ الدارسَ لهذه الكتبَ وغيرها يدركُ مصداقَ ذلك. ولقد شهدَ المودودي باطلاعِه الواسعِ على الحضارة الغربية كثير من المفكرين المسلمين، يقول العلاَّمَةُ محمد البشير الإبراهيمي: "للمودودي اطلاعٌ واسعٌ على الحضارةِ المُعاصرةِ، وهو يَزِنُهَا بالميزانِ القِسطِ، فلا ينكرُها، ولا يندفِعُ نحوَها، بل إنَّه يقفُ منها موقفَ الحَذَرِ والانْتِبَاه".[3] ويرى الأستاذُ أبو الحسن الندوي أنَّ من صفاتِ الأستاذِ المودودي الفكريَّةِ: الاطلاعُ الواسعُ على مناهجِ الفكرِ الغربيِ، ومواجهةُ الحضارةِ الغِربيَّةِ ونظمِها بشجاعةٍ، وأنَّ مؤلفاتِه تدلُّ

---

[1]- وذلك في كتابه القيم "الحضارة الإسلامية أُسُسُها ومبادؤها" ص 6.

[2]- نفس المصدر ص 9.

[3]- مجلة عيون البصائر للإبراهيمي ص 692.

على أنَّه من المُفكِّرينَ المسلمين القلائلَ الذين جعلوا علومَ الغرب ونظرياتِه موضعَ النَّقدِ والفحصِ والدِّراسةِ الجريئةِ.[1] ويَعُدُّه الدكتور عبد الصبور شاهين من الرِّجالِ القلائلِ الذين لهم اتصالٌ مباشرٌ بمصادرِ المعرفةِ الحديثة، حتَّى أنَّه أصبحَ من أَعلامِهَا، وهو يصارعُ أكثرَ علماءِ الغربِ اتصالاً بثقافةِ الغربِ".[2]

ونتركُ المجالَ للمودوديِّ ليحدِّثُنا عن مدَى اطِلاعِه على الحَضارةِ الغربيةِ وعلومِها ونظرياتِها، ومدَى دراستِه لسيرةِ مفكرِّيها وفلاسفتِها. يقولُ: "تناولتُ بحثًا ودراسةَ الأفكارَ التي انتجها الفلاسفةُ الملحدونُ والماديون. وكذلك قرأتُ ما كتبَه دعاةُ الإلحادِ والدَّهرية باسمِ العلومِ الطبيعيَّةِ. بل قرأت لجميعِ المفكرين الغربيِّنَ الذين رأيتُ العالمَ العربِيَّ يتَّبَعهُم، فقرأتُ تراجمَ حياتِهم، لكي أَعرفَ هل هؤلاءِ المفكرينَ كانوا على سلامةِ الفطرةِ والرزانة.[3] أم لا؟".[4]

وإذا كانت للمودوديِّ مثلُ هذه المعرفةِ عن الحضارةِ الغربيَّةِ فإنَّ تصويرَه ونقدَه لها لم يكُنْ إذنْ عن فراغٍ، إنَّما نقدَها وهاجمهَا بعدمَا عرفَ آثارَها الخطيرةَ على الإنسانِ والدِّينِ والأخلاقِ، فهي حضارةٌ مدمرةٌ للإنسان، حيثُ حَطَّت من مكانتِه السَّاميةِ، وجعلتهُ مجردَ حيوانٍ ليس له هدفٌ في الحياةِ إلاَّ تحقيقَ شهواتِه، ورغباتِه التي لا تَنقضِي، وهي حضارةٌ ماديَّةٌ تُنكِرُ وجودَ الإلهِ المُدَبِرِ الخالقِ القديرِ، وتقرِّرُ الكفرَ والإلحادَ وعبادةَ الذَّات، والأهواءِ والمالِ. وهي حضارةٌ تَتَنكَّرُ للإخلاقِ والقيمِ، اللهمَّ إلاَّ القيمَ الماديَّةَ.

والآن أذكرُ نظرة المودودي الى القيم والأخلاق والأفكار السلوم والنظم التي تصور الضارة المعاصرة . وسوف يتبين لنا أن الأصوب ان نطلق طيها اسم الجاهلية المعاصرة، لأن اسم الحضارة جدير بان يطلق على المعنى الصحيح للحضارة وهو الاسلام، الاسلام الذي يملك تحضير الناس وتهذيب نفوسهم ومشاعرهم ، الاسائم الذي استطاع أن يجمل من المدرب الجفاة الفاظ أمة من عشرة حيث وقتها الى آفاق الانسانية الخالدة.[5]

إنَّ الحضارةَ المعاصرةَ قامت على أسسٍ وقيمٍ ومفاهيمَ ماديَّةٍ، فهي تنظرُ إلى الكون نظرةً ماديَّةً إلحاديَّةً، فلا تؤمنُ بوجودِ الله سبحانه وتعالى، ولا ترى حقيقةً إلاَّ المُشاهدَ المحسوسَ، فلا شيءَ من وراءِ هذا الظاهرِ المرئي، وانصرفَ الغربَ في ظلِّ حضارتِه الماديَّةِ إلى عبادةِ أنفسِهم، واتخذوا ذواتَهم آلهةً من دونِ الله تعالى، وأَصبحَت الحياةُ في ظلِّ

---

[1]– انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوى، ط 2، ص 114، 190.

[2]– انظر مقدمة كتاب الإسلام يتحدَّى: وحيد الدين خان، الطبعة الخامسة، ص9، والدكتور عبد الصبور شاهين أستاذ جامعي مصري معاصر، عُرِف باتجاهِه الإسلامي الصحيح، وكتاباته الإسلامية السليمة.

[3]– الرزانة: الوقار، انظر مختار الصحاح للرازي مادة يزن.

[4]– مجلة الإرشاد اليمنية العدد السادس – السنة الرابعة– شعبان 1402هـ– يونيو 1982م من مقال بعنوان: حياة رجل قصة كتاب للأستاذ خليل الحامدى ص 9–10.

[5]– انظر شبهات حول الإسلام: محمد قطب ص 142.

هذه العبادةِ للذَّاتِ مليئةً بالمشاكلِ المعقدةِ، التي لم يستطع الإنسانُ حلَّها أو التَّخلُصَ من آثارَها، فهو كلَّمَا حاول إيجادَ الحلول لمشكلة عويصةٍ، ظهرت له مشكلةٌ أخرى أشدُّ منها خطرًا. فعندما حاول الغربيُّ مثلاً القضاءَ على الرأسماليِّةِ القائمةِ على الأنَانيَّةِ الفرديَّةِ والظلمِ الاجتماعي، ظهرت مكانها الشيوعيةُ القائمةُ على الديكتاتوريِّةِ والتَّسلطِ، وكبتِ الحريَّاتِ الفردِيَّة. وعندما حاول القضاءَ على الديمقراطية ظهرت له الفاشيَّةُ، وكلَّما حاولَ إيجادَ الحلولِ للمشكلات الاجتماعية ظهرت له مشكلاتٌ أخرى، تَتَمَثَّلُ في الحركات النُّسويَّة المُتطرِفةِ، وحركاتِ الشبابِ القلقِ المضطربِ، وحركةِ تحديدِ النَّسلِ. وعندما سمحَ الغربُ لاستخدام سلطة القانون من أجلِ القضاءِ على المفاسدِ الخُلقيَّةِ نتجَ – كردٍ للفعلِ– نزعةُ التَّمردِ على القوانينِ، وارتكابِ الجرائمِ والمُنكراتِ.

لقد جعلت الحضارةُ الغربيَّةُ –التي تؤلِّهَ الإنسانَ على الإنسان– الحياةَ مليئةً بالمصائبِ والآلامِ، وجعلت القلوبَ البَشَريَّةَ مضطربةً قلقةً، لا تكادُ تهدأُ من شدة العذاب.[1]

إنَّ الحضارةَ المُعاصرةَ انبعثَتْ في أُمَّةٍ لم تكنْ تملكُ في الحقيقةِ نبعًا صافيًا طيبًا من الحكمةِ الإلَهِيَّةِ، ولا شكَّ أنَّه كان بينهم زعماءُ دينيون، ولكنَّه لم تَكُن بيدِهم الحكمةَ، ولا كانَ عندَهُمُ العلمُ، ولا القانونُ الإلهيُّ. أقصى ما كانوا يملكون هو نظريَّةٌ دينيَّةٌ مخطئةٌ، لم تكنْ لترشدَ النَّوع البَشريَّ إلى السبيلِ السَّوي من سُبلِ الفكرِ والعملِ، مهما شاءَ أصحابُها أنْ تفعلَ. وكلُّ ما كانَ لهذهِ النَّظريةِ أنْ تفعلَ هو أنْ تحولَ دونَ رقيِ العلمِ والحكمةِ، ففعلَت، وكان من نتيجةِ هذه الحيلولّةِ والمنعِ أنْ ثارَ على الدِّينِ من كانوا يريدونِ الرُّقيَ، فنَحَّوْهُ من طرُقِهِم، وساروا في سبيلٍ أخرى، لم يكن دليلُهم فيها إلاَّ المشاهدةَ والتَّجربةَ والقياسَ والاستقراءَ.[2]

ولقد حَصُلَ النِّزاعُ بين النَّصرانيَّةِ كدينٍ للغرب وبين العلم وحريَّة الفكر، وذلك عندما قامَ القساوسةُ والرُّهبان النَّصارى، –الذين بَنَوْا عقائدَهم الدِّينيَّةَ على الأُسِسِ التي جاءت بها النظريَّاتُ الفلسفيَّةُ اليونانيَّةُ القديمة – يزعمون أنَّه إذا أَدَّى التَّحقيقُ العلمي والاجتهادُ الفكري إلى مصادمةِ أُسِسِ عقائدِهم الدِّينيَّةِ، فإنَّ الدِّينَ النَّصرانِي سينهدمُ، لذلك ما كانوا يقبلونَ أَيَّةَ فكرةٍ علميَّةٍ تخالفُ تصوراتِهم للكونِ والحياةِ والإنسان، ولا كانوا يسلمون بأيِّ تفكيرٍ فلسفيٍ يخالفُ المسلماتِ الفلسفيَّةِ اليونانيَّةِ التي يؤمنون بِهَا. لأَنَّهم كانوا يعتقدونَ بأنَّ التَّسليمِ بأيِ شيءٍ يخالفُ مذهبَهُم يُشكِّلُ خطرًا جسيمًا على الدِّينِ، وما بُنِيَ على قواعدِه من نظامٍ للمدنيَّةِ والسياسةِ والاقتصادِ. ولذلك قامَ رجالُ الكنيسةِ بمقاومَةِ النَّهضةِ العلميَّةِ الحديثةِ، وأَنشأوا محاكمَ التَّفتيشِ لمحاكمةِ رُوَّادِ هذه النَّهضةِ، وعاقبوهم أشدَّ أنواعِ العقوبات.[3]

---

[1]– نحن والحضارة الغربية ص 39–41.

[2]– نفس المصدر ص 38–39.

[3]– يقدر عدد من عاقبتهم محاكم التفتيش بحوالي ثلثمائة ألف شخص، أعدم منهم حرقا اثنان وثلاثون ألفا، ومن بين هؤلاء العالم الطبيعي "بورنو" القائل بتعدد العوالم، والعالم الطبيعي "غليلو"

ولكن رُغمَ طُغيانِ الكنيسةِ وممارستُها للعنفِ والقوة ضد الفلاسفة والعلماء الذين يعتقدون خلاف عقائدِها، رغم ذلك تويت النهضة العلمية واصبح وادها واتباعها يكُنَّونَ العداءَ للدِّين ورجالِه.[1] كلَّما ازدادَ اضطهادُ رجالِ الدِّينِ وتضييقُهم، ازدَادَ هذا العداءُ نموًا وانتشارًا، ثمَّ إنَّ هذا العداءَ لم يقف عند الديانةِ المسيحيَّةِ وكنيستِها فقط، بل أصبحَ الدِّينُ ذاتُه هدفًا لعدائِهم رفضًا لنفورِهم، وصارَ من الفكرة السائدة عند حملةِ العلومِ الجديدةِ ورفعي لواءِ الحضارةِ الحديثةِ أنَّ الدِّينَ في حدِّ ذاتِه إنْ هو إلاَّ نوعٌ من الدَّجلِ والتَّزويرِ، ليسَ في وُسعِهِ أنْ يَثبتَ أمامَ ضربةٍ من ضرباتِ الاختبارِ العقليِّ، وإنَّما بُنِيت عقائدُه على الإذعانِ الأعمى والخضوعِ المحضِ من دونِ حُجَّةٍ ولا برهانٍ، وإنَّمَا يخافُ على نفسِه ازدياد نورِ العلمِ واتساعِ رقعةِ المعرفةِ، لكيلاَّ يُفتَضَحٌ أَمرُه، وتَتَضِحُ للنَّاسِ حقيقتُه،[2] وهكذا زَالَت هيبَةُ الدِّين في أوربا، وأصبحتِ الغلبةُ والهيمنةُ للعلمِ، ولكنَّه العلمُ الذي جلبَ الدَّمارَ والهلاكَ للغربِ وللبشريَّةِ جميعًا. العلمُ الذي قضَت آثارُه على القيمِ والأخلاقِ الفاضلةِ. يقول اللورد لوثين[3]: "إنِ العِلمَ الحديثَ في الغربِ قد أدَّى إلى أَمريْنِ عظيمين: ففي جانبٍ قد وَسَّعَ هذا العلمُ سيطرةَ الإنسانِ على الفطرةِ وقوَّاها، وفي جانبٍ آخرَ قد أضعف سلطانَ الدِّينِ الموروثِ على الجيلِ المتخرِجِ من الجامعات وعلى سائرِ النَّاسِ على العموم، وكل ما يوجدُ اليومَ من المفاسدِ في هذه الدنيا المعاصرةِ فإنَّ نصفَه على الأقلِ آتٍ من هذين السَبَبينِ. فالإنسان المُتعلِّمُ قد كادَ يسكرُ بنشوةِ القُوَّةِ والقدرةِ الهائلةِ التي قد زَودَّه بها العلمُ، ولكنَّه لم يتقدمْ في سبيلِ الأخلاقِ مثلَ تَقَدُّمهُ في المدنيَّةِ والعلومِ، ممَّا يكونُ ضمانًا بأنْ لا تُستخدَمُ هذه القوةُ لهلاكِ الإنسانِ، بل لفلاحِه.[4]

ويعقِّبُ المودوديُّ على قول اللورد لوثين مبينًا أخطارَ العلمَ الذي اعتمدت عليه الحضارةُ الغربيَّةُ المُعاصرة، فيقول: "إنَّ مشاهداتِ العالمِ الطبيعي، ومعلوماتِ القوانين الطَّبِيعيَّةِ لا يمكنُ أنْ تكونَ أساسًا لحضارةٍ ساميةٍ، لأنَّ هذه المشاهداتِ والمعلوماتِ لا تجعلُ الإنسانَ إلاَّ في منزلةِ حيوانٍ عاقلٍ، ولا تُعينُ إلاَّ على أنْ تَتَّخذَ للحياةِ تلك النَّظريةِ التي هي نظريَّةُ المادِيِّين، وهي أنَّ الإنسانَ تنحصرُ حياتُه كلُّها في هذه الدنيا، وغايتُه النِّهائيَّةِ أنْ يُحَقِّقَ رغباتُه الحيوانيَّةِ في هذه الحياة بأكثرَ ما يكونُ من الجودةِ والكمالِ، وأنَّ الوجهَ الحقيقيَّ لاستعمال القوةِ هو أنْ ينسجمَ الإنسانُ مع ما يجري في هذا الكون من قانونِ التَّنازُعِ للبقاء والانتخابِ الطَّبيعي، وبقاءِ الأَصلحِ، فَيُخضِعُ ويُهينُ كلَّ مَنْ حولَه من الخلائقِ، ويتغلَّبُ

القائل بدوران الأرض حول الشمس. انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: الندوى، دار القلم – الكويت، الطبعة الثامنة، ص 194.

[1]– انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 159–160، نحن والحضارة الغربية ص 13–14.

[2]– موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 160.

[3]– اللورد لوثين: ضابط بريطاني، عمل مسئولاً في مهام أمور الدولة البريطانية، تخرج من جامعة أوكسفورد، وعمل رئيسا لتحرير مجلة "روندتيل" الإنجليزية. انظر نحن والحضارة الغربية ص 82.

[4]– نقلاً عن المصدر السابق ص 86.

عليهم. فالحضارةُ التي اتَّخذَتها أوروبا كانت تقومُ على هذهِ النَّظريَّةِ للحياة، (وهي النَّظريَّةُ المزعومةُ التي جاءَ بها دَارون)، وكان من عاقبةِ الأمرِ أنَّ جميعَ القوى التي تَسلَّحَ بها الإنسانُ بفضلِ رقيِّ العلم والتَّمدُّنِ غدت تُستعملُ لهلاك الإنسانية لا لسيادتها وفلاحها. وصار أهلُ الغربِ أنفسِهم يشعرونَ بأَنَّهم في حاجةٍ إلى حضارةٍ إنسانيَّةٍ أسمى ممَّا هم فيه من الحضارةِ الحيوانيَّة، وأنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ أساسُ تلك الحضارةِ المطلوبةِ إلاَّ الدِّينَ.[1] ولقد اتَّسعت دائرةُ النِّزاعُ بين الكنيسةِ والعلمِ، لِتدخُلَ ميدانَ السياسةِ والاقتصادِ والاجتماعِ، وانتهى هذا الصراعُ بِسقوطِ الكَنِيسةِ، ومنْ ثَمَّ عزلُ الدِّينِ (النصرانية) الذي تمثِّله عن مختلفِ ميادينِ الحياةِ وشعبِها المتعددةِ حتَّى أصبحَ هذا الدِّينُ محصورًا في نِطاقِ العقيدةِ الشَّخصيَّةِ والأعمالِ الفردِيَّةِ، وليسَ من حقِّهِ التَّعرضَ للشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا تَدَخُّلَ له أيضًا في مجالِ القيم والأخلاق والعلوم والآداب والفنون، فالفردُ له أن يعتقدَ إذا شاءِ باللهِ، ويؤمنُ بهديِهِ وتوجيهِهِ في حياتِه الشَّخصيَّةِ فَحَسب، أمَّا الحياةُ الاجتماعيَّةُ فهي خارجةٌ تمامًا عن نفوذِ تَعاليمِ الدِّينِ وتوجيهاتِه. وبإيجازٍ أصبحَ الدِّينُ متقوقعًا بينَ جدرانِ الكَنِيسةِ، بعدَ أنْ كانت الكلمةُ النِّهائيَّةُ له ولقساوِسَتِه ورُهبَانِه.[2]

ولمْ يقفُ الأمرُ عندَ هذا الحدِّ، بل تجاوزَهُ إلى نفاذِ الإلحادِ في عروقِ الحضارةِ الجَديدةِ، فالتَّقدُمُ والرُقيُ في الفنونِ والآدابِ والمعارفِ مازال موجودًا في أصلهِ ذلك العَداءُ الذي حَصُلَ في بدءِ النَّهضةِ العلميَّةِ، فالحضارةُ الجديدةُ جعلتِ النَّاسَ يَشُكُّونَ ويرتابونَ في كلِّ شيءٍ جاءَ بِه الدِّينُ، سواءٌ كان إعتقاداً إيمانيًا أو هديًا أخلاقيًا، أو قيمةً معنويَّةً. أمَّا ما يأتي من ناحيةِ العلمِ والفكرِ الجَديدِ فقد مجَّدتهُ الحضارةُ الغربيةُ وجعلتهُ الجديرَ بالقَبُولِ والتَّصديقِ، ولو كان كفرًا وإلحادًا. وبذلك سرت في روحِ الحضارةِ المُعاصِرةِ الماديَّةُ والدهريِّةُ والإلحادُ، لأنَّها طرَحت الدِّينَ جانبًا، وارتكزت على الفلسفةِ المادِّيةِ التي تعتمدُ على الحَواسِ في الوصولِ إلى معرفةِ الكونِ وحقائقِهِ.[3]

ولقد ساهمَ فلاسفةُ الغربِ ومفكروه فى إيجادِ روحِ الماديَّةِ والإلحادِ التي سَرتْ في الحضارةِ المعاصرةِ، وعلى رأسِ هؤلاء الفلاسفةِ، فلاسفةُ القرنِ السابعِ عَشَرَ الذين شَكَّلتْ معارُفهم وأَبحاثُهم عن أَسرارِ الكونِ – بِقطعِ النَّظرِ عن التَّعاليمِ الإلهية– النُّواةَ الأُولى للدهريَّةِ والماديَّةِ.[4] وكذلك فلاسفةُ القرن الثامن عشر الذين جاؤوا إمَّا ينفونَ وجودَ اللهِ تعالى أو يُصدِّقونَه من حيثُ هو خالقٌ ليس إلاَّ، قد انزوي في ملكوتِه السماوي بعد أنْ أَعطَى هذا الكونَ خلقَه وحرَّكَ دولابَه، فليسَ له الآن في تدبيرِ النِّظامِ يدٌ. كان هؤلاء لا يعتقدونَ بِه خارجَ

---

[1]– نفس المصدر السابق ص 88.

[2]– انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 161.

[3]– انظر نفس المصدر السابق ص 162.

[4]– انظر نحن والحضارة الغربية ص 17–18.

الطَّبيعةِ وفوق عالم المادةِ والحركةِ، وكانوا لا يعتقدنَ الحقيقةَ لشيءٍ سوى ما يأتي تحتَ مشاهدةِ الإنسانِ وتجريتهِ.[1] وفي القرنِ التَّاسعِ عشرَ بلغتُ الماديَّةُ مُنتهاها. إذا جاءَ كلٌّ من الفلاسفةِ "فيلهلم فونت"[2] و*الفيلسوف* الألماني الملحد "بوخنر"[3]، و"زولبى"، و"كومت"[4] و"مولشان."[5] ومن لفَّ لفهِم من الحكماء والفلاسفة يبطلُ وجودَ كلِّ شيءٍ ما خلا المادةَ وخصائصَها. وقام الفيلسوفُ "مل"[6] بإشاعةِ التَّجريبيَّةِ في الفلسفةِ، والنَفعيَّةِ في الأخلاقِ، وعرض الفيلسوفُ "سپنسر"[7] بكلِّ قوةٍ وشدةٍ النظريَّةَ القائلةَ بحدوث هذا الكون بدونَ خالقٍ، وظهورُ هذه الحياة من تلقاءِ نفسِها. وجاءت موجةُ الاكتشافاتِ العلميَّةِ في مختلفِ العلوم والفنون، كعلومِ الحياةِ، والعضويات والحيوان وطبقات الأرض، وتَقدُّمِ العلوم التجريبية وتكاثرِ الوسائل المادية، جاءَ بكلِّ ذلك يؤكِّدُ ويثبتُ في نفوسِ النَّاسِ أنَّ هذا الكونَ قد حدَثَ من نفسهِ، ليس له خالقٌ، وهو سائرٌ في طريقهِ إلى قوانينَ معلومةٍ، وليس ورائَه مدبرٌ، وقد بقيَ يتدرَّجُ في منازلِ الرقيِ بدونِ أنْ يكونَ لذاتٍ فوق الطبيعة أثرٌ يُعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها. وأنَّ المادةَ غيرُ ذاتِ الرُّوحِ، ولمْ تكنْ تَتلَّقى الروحَ بأمرٍ من ربٍ، وإنَّما المادةُ متَى ارتفعت فى نُظِمِها وتركيبها وقعت فيها الروح من ذات نفسها. وأنَّ النُّموَ والحركةَ التَّابعةَ للإرادة والإحساس والشعور والفكر، كلُّ أولئكِ خصائصٌ لتلكَ المادةَ المرتقبة. وكلٌّ من الحيوانِ والإنسان آلاتٌ، تَجري وتَتَحرَّكُ بحسبِ قوانينِ الطَّبيعةِ، وتصدرُ منها الأفعالُ

---

[1]– انظر نفس المصدر السابق ص 18–19

[2]– فيلهلم ماكسيميليان فونت: (1832–1920م)، طبيب وعالم فيزيائي، وفيلسوف وأستاذ، يُعرف كواحدٍ من مؤسسي علم النفس الحديث. وهو أول شخص يطلق على نفسه عالم نفسي، وهو الذي ميَّزَ علمَ النفس كعلمٍ من الفلسفة والبيولوجيا. ويعدُّ والد علم النفس التجريبي.

[3]– بوخنر: (1824–1899م) هو لوتفخ بوخنر، فيلسوف ملحدٌ ألمانى، عارضَ المذهب المثالي في الميتافيزيقا بفلسفته المادية المتطرفة. انظر الموسوعة العربية الميسرة 425/1.

[4]– انظر نفس المصدر السابق ص 162.

[5]– كومت: (1798–1857م). هو أوجست كومت، فيلسوف فرنسي، وهو واضع أسس الفلسفة الوضعية، وفكرة الإنسانية بمفهومها الحديث، كما أنَّه واضعُ مبادئ علم الاجتماع، التي أكملها بعده تلميذه إيميل دوركايم، ومذهبه مبسوطٌ فى كتابه "محاضرات في الفلسفة الوضعية". انظر الموسوعة العربية الميسرة 1517/2.

[6]– مل: (1806–1873م) هو جون ستيوارت مل، فيلسوف انجليزى به من دعاة تحرير المرأة، وإصلاح حالِ العمال. من مؤلفاته: مذهب في المنطق، مبادئ الاقتصاد السياسي، مذهب المنفعة. انظر الموسوعة العربية الميسرة 1738/2.

[7]– سبنسر: (1820–1903م) فيلسوف إنجليزى، درس الهندسة ثمَّ تحوَّل إلى العلوم الطبيعية وعلم النفس، لقب بفيلسوف التَّطور، كان يرى أنَّ الفلسفةَ هي حصر المعرفة بمبدأ التَّطور. له آراء في التربية، أهم كتبه: أصول علم النفس، وفيه حصر مذهبه، وأصول علم الاجتماع، وأصول الأخلاق. انظر الموسوعة العربية الميسرة 960/1.

والحركاتُ على حسبِ التَّركيبِ الذي قد رُكِّبَت فيه أجزاؤها وآلاتُها. وهي ليست على شيءٍ من الاختيار الذاتى والإرادة المُستقلَّة. وأَمَّا إذا اختلَّ نظامُ تلك الآلات أو نَفدتْ قوَّتُها فعندئذٍ يَحدُثُ الموتُ، وهو بمثابةِ الفناءِ الأبدي، لأنَّ الآلة إذا انكسرت وتفرَّقت أجزاؤها، بَطُلَت أيضًا خصائصُها، ولم يَعُدْ من الممكنِ تجميعُها وإعادةُ تركيبها مرةً أُخرى أبدًا،[1]

ثمَّ جاءت نظريَّةُ دارون في التَّطورِ والإرتقاءِ، فدَّعمَت المذْهَبَ المَادِّيَّ القائلَ بأنَّ الكونَ قدْ وُجِدَ بدونِ إلهٍ خالقٍ، وجُعِلتْ نظريةً علميَّةً يُحتجَّ لها بالأدلَّةِ والبراهين. وادَّعت النَّظريَّةُ المزعومة أنَّ أوَّلَ الموجوداتِ الحيوانيَّةِ كانت في بدايةِ أمرِها دودًا يَدُبُّ، وبفعلِ العواملِ المُختلفةِ كتنازُعِ البَّقاء، وبقاءِ الأَصلحِ، والانتخاب الطبيعي تطورت الدودةُ إلى إنسانٍ ناطقٍ ذي إحساسٍ وشعورٍ، وذلك بعدَ أن مرَّت بمراحلَ مُتَعَدِّدَةٍ.[2]

وبعدَ بيانِ مراحلِ سريانِ الماديَّةِ والإلحادِ في روحِ الحضارةِ المُعاصرةِ، يقول المودوديُّ: "هاتان هما الفلسفةُ والعلومُ التَّجريبيَّةُ اللتان قد نَتَجت عنهما الحضارةُ الغربيَّةُ، وهي كما ترى لادِينيَّةً بحتة، لا مجالَ فيها لمخافةِ إلهٍ في السَّماءِ عليمٍ قديرٍ، ولا وزنَ فيها لنبوَّةٍ أو وحيٍ وإلهامٍ، ولا تَصوُّرَ فيها لحياةٍ أخرى بعدَ الموتَ، ولا خوفَ من المحاسبةِ على أعمالِ الحياةِ الدنيا، كما لا وجودَ فيها لمسؤوليَّةٍ مُلقاةٍ على الإنسانِ، ولا إمكانَ فيها لقصدٍ أو غايةِ أجلٍ أسمَى من المقاصدِ الحيوانيَّةِ لحياةِ الإنسانِ".[3]

وإذا كانت الماديَّةُ والإلحادُ من مُمُيِّزاتِ الحضارةِ الغربيَّةِ، فإنَّ من مُمُيِّزاتها أيضًا الأُنَانِيَّةُ وحبُّ الذَّات. إنَّ العقليَّةَ الماديَّةَ قد أنشأت في النَّاسِ من الأَثَرَةِ وحبِّ الذَّاتِ ما قد جعلَ كلَّ فردٍ في المجتمعِ يُحبُّ أنْ يُهَيِّء لنفسِه أكثرَ ما يستطيعُ من أسبابِ التَّرفِ والرَّفاهيةِ وتنعُّمِ البَالِ، ولا يحبُّ بحالٍ أن يُشاطرَه فيمَا يَكسبُه أَحدٌ غيره، ولو كان أبَاه أو أُمَّه أو أَخَاه أو أُختَه أو وَلَدَه. وقد أحدث الأغنياءُ والمترفون طرقًا لا تُعدُّ ولا تُحصَى، لترفِهِم والترفيهِ عن نفوسِهم، والنَّاسُ من الطبقةِ الوسطى أو الدُنيَا عندما يرؤنَهم يرفلونَ في أسبابِ البذخِ والتَّرفِ هكذا، تُحدِّثُهم نفوسُهم بأنْ يَبذُلُوا سعيَهم أيضًا لإقتنائِها والاستمتاعِ بها. والنَّتيجةُ لذلك أنْ كثيرًا من أسبابِ البَذخِ والترفِ قد أصبَحت اليومَ في عدادِ لوازِمِ الحياةِ ومرافقِها الأَسَاسيَّةِ حتَّى بالنسبَةِ لعامَّةِ النَّاسِ، وأصبحوا يظنُّون أنَّه لا يُمكنُهم الحياةَ بدونِها، ممَّا قدْ رفعَ مستواهَم المعيشيَّةِ العامَّةِ، وبلغَ بِهم حيثُ قدْ أَصبحَ من المُحالِ لفردٍ منهم أنْ لا يستجيبَ لمطالبِ ذاتِه، فضلاً عن أنْ يكونَ كفيلاً بإعدادِ أسبابِ المَعيشّةِ لزوجتِه وأولادِه.[4]

---

[1]– نحن والحضارة الغربية ص 19–20.

[2]– نفس المصدر ص 20–21.

[3]– نفس المصدر ص 22.

[4]– حركة تحديد النسل ص 11.

ولقد سيطرت الأَنَانيَّةُ المفرطةُ وحبُّ الذَّاتِ واحتقارِ الغيرِ على حياةِ المجتمعِ الغربي، وشملت بسيطرتِها ميادينَ العلمِ والأخلاقِ والاقتصادِ والسياسةِ. فالعلومُ التَّجريبيَّةُ اتَّخذَها الغربَ الاستعمارى آلةً لتدميرِ الإنسانِ وسحقِ كيانِه ووجودِه. والأخلاقُ أصبحت تَعنِي الأَثَرَةَ والطَّمعَ والجَشَعَ والرِّياءَ. وأَضحى الاقتصادُ يعني الاستبدادَ والغشَّ والاحتكارَ والظُلَمَ والحرمانِ، وأصبحت السِّياسةُ هي التَّعصبُ للقوميَّةِ والوطن، وممارَسَةِ التَّفرقةِ العنصريَّةِ بين الشُّعوبِ على أساسٍ من اللَّونِ والجنسِ.[1]

يقول اللورد لوثين: "إنَّ الدُنيا الغربية قد كَلَفَت[2] بتلكِ المذاهبِ السياسية التي تقومُ على مفارقاتِ النَّسلِ والطَّبقيِّة. إنَّه قد أصبحَ من الصَّعبِ لأوربا اليومَ أنْ تَخلُقَ بين حياتِها وروحِها من التلائم ما ينقذُها من أكبرِ آفاتِ هذا العَصْرِ، وهي القوميَّةُ الضَّيقةُ.[3] وبتأثيرِ الأنَّانيَّةِ وحُبِّ الذَّاتِ صارعَ الأفرادُ بعضَهم بعضًا، وأخذَت كلُّ طبقةٍ من طبقاتِ المجتمعِ تَتّعالى على غيرِها من الطَّبقاتِ، وبذلت كلُّ أمَّةٍ أقصى جهودَها للحصولِ على النَّصيبِ الأكبرِ من الثَّرواتِ المادِيَّةِ، ومن هنا وُجِدَت النَّزعةُ الإستعماريَّةُ عند الغربِ الصَّليبي، كما وجِدَت التَّفرقةُ العُنصريِّةُ التي عانَت ويلاتِها الشعوبُ الأفريقيِّةُ والآسيويِّةُ، وغيرِها من الشُّعوبِ التي وقَعت فريسةً للغزوِ الأُوربيِّ.

إنَّ الحضارةَ الغربيةَ لا تملكُ أن تؤلِّفَ بين النَّاسِ، ولا تستطيعُ أن تُمَهِّدَ السَّبيلَ إلى التعاونِ الماليِ والوئامِ الدولي، مهما أَقامت في ديارِها من المجالس والهيئات الدولية التي تَهدِفُ إلى نشرِ السِّلمِ والأمنِ في ربوعِ العالم. إنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ لا تستطيعُ أنْ تُجَنِّبَ البَشريَّة ويلاتِ الحروبِ التي تَشهدُها كثيرٌ من بقاعِ العالم اليوم. إنَّها حضارةٌ لا تَعرفُ إلاَّ التَّفرقةَ والتَّمزيقَ، ولا تَتَنكرُ إلاَّ للوَحدةِ والتَّضامن والوئام.[4] يرى الأستاذُ محمد أسد[5] أنَّ أوروبا ورثت حبَّ الذَّاتَ واحتقارِ غيرِها من الشُّعوبِ عن اليونانِ والرُّومانِ الذين كانوا ينظرونَ إلى أَنفسِهم على أنَّهم هم وحدُهم المتمدينون المتحضرون، وأمَّا غيرُهم من الشُّعوبِ وخاصةً التي تسكنَ شرقَ البحرَ الأبيضِ المتوسطِ فكانوا يُطلقونَ عليها لفظَ "البَرَابِرة"، ويضيفُ محمدُ أسد قائلاً: "ومنذُ ذلك الحينَ والأوربيون يعتقدونَ أنَّ تفوقَهم العُنْصُرِي على

---

[1]– انظر نحن والحضارة الغربية ص 39، 04.

[2]– كَلَفَت: أَولَعت، انظر مختار الصحاح للرازى، مادة كلف.

[3]– نقلاً عن "نحن والحضارة الغربية" ص 89.

[4]– انظر أضواء على حركة التضامن الإسلامي للمودودي ص 22، 23، 24.

[5]– محمد أسد: مفكر، نمساوى الأصل، كان اسمه ليوبولد فايس، اعتنق الإسلامَ عام 1926م وتسمَّى باسم محمد أسد، زارَ معظمَ الدول الإسلامية، وتجوَّلَ في أنحائِها، قام بترجمة معاني القرآن الكريم وصحيح البخاري إلى اللغةِ الإنجليزية، من مؤلفاته: الإسلام على مفترق الطرق، منهاج الإسلام في الحكم، الطريق الى الإسلام.

سائرِ البَشرِ أمرٌ واقعٌ، ثمَّ إنَّ احتقارَهم إلى حدٍ بعيدٍ أو قريبٍ لكلِّ ما ليس أوربيًا من أجناسِ النَّاسِ وشعوبِهم قد أصبحَ إحدى الميزاتِ البارزةِ في المدّنِيَّةِ الغربيَّةِ.[1]

ومن مُمَيِّزاتِ الحضارةِ الغربيَّةِ المعاصرة: الحريَّةُ التَّامةُ والإباحيَّةُ المُطلقةُ، وقد أُعطِيَتَا للفردِ الأُوربِي في القرنِ الثَّامِنِ عشرِ الميلادي كنتيجةِ غضبٍ وسَخطٍ على النِظام الاجتماعي القائم على الظُلْمِ والجَوْرِ.[2] وبفعلِ التَّصورِ المغالي للحريَّةِ حدثت الثورةُ الفرنسيَّةُ التي أبطلت النَّظريَّاتِ الخُلقيَّةِ القديمةِ، وهدَمَت القواعدَ المدنيَّةَ والدينيَّةَ. وقد شهِدَ القرنُ التَّاسعُ عشرَ نشاطًا ملحوظًا لكثيرٍ من الكُتَّابِ والأُدباءِ الذين قاموا بترويجِ الأفكارِ التي تدعو الشبابَ والفتياتَ إلى الثَّورةِ على الآدابِ الخُلقيَّةِ، وتحقيقِ الشَّهوات الجِنسيَّةِ باعتبار أنَّ الحريَّةَ والتَّمتعَ بلَذَّاتِ الحياةِ حقٌ فِطريٌ للإنسان، وليسَ من الإثمِ أو الخَطيئةِ فضاءِ الشَهوةِ الجَسدِيَّةِ، وتحقيقِ رغباتِ النَّفسِ.[3]

ولقد كانَ من نتائجِ الحربِ العالميَّةِ الأولَى زيادةُ نزعةِ التَّحررِ والدَّعوةِ إلى الإباحيَّةَ، وذلك أنَّ نسبةَ المواليدِ في فرنسا قد انخفضَت، وعندما قَضَت الحَربُ العالميَّةُ على كثيرٍ من الشَّبابِ الفرنسي شعرَ المفكرون بحاجةِ البلادِ إلى الرِّجالِ المقاتلين الذين يدافعونُ عن البلادِ في أيِّ حربٍ مُقبلةٍ، ولكي يزيدوا من عددِ الجنودِ المقاتلين فلابدَّ من زيادةِ النَّسلِ، ومن هنَا قامَ الخُطباءَ والكتَّابُ والصَّحفيون ورجالُ الكنيسة والزعماءُ السياسيون يَدعونَ إلى زيادةٍ نسبةِ المواليدِ في البلاد.[4]

وكان لسانُ حالِهم جميعًا يستصرخُ الفرنسيينَ أنْ يُكثِروا من التَّوالدِ والتَّناسلِ، ولا يبالونَ القيودَ التَّقليديَّةِ من النِّكاحِ والزواجِ، ونادَوا أنَّ المرأةَ التي تَتَبرعُ يرحمِها للتَّوليدِ خدمةً للوطن، تَستَحقُّ العزَّةَ والكرامةَ، لا العتبَ والمُلامَ.[5] وهكذا سَنحَتْ الفُرصَةُ لدُعاةِ الحُرِّيَّةِ والإبَاحيَّةِ لكى يزيدوا من نشاطِهم ودعوتِهم، فابتدعوا كثيرًا من الأفكارِ والنَّظريَاتِ التي تُساندُ دعوتَهم الخطيرةَ، وحدثت في بلادِ الغربِ حركةٌ أدبيَّةٌ،[6] وكان مبدؤُها الرَّئيس قضاءَ الشَّهوةِ بحريَّةٍ تَّامةٍ مع منعِ الحملِ بوسائلَ العلومَ التَّجريبيَّةِ، وذلك أُزيلت العقباتِ التي تَعترَضُ طريقَ النَّاسِ في المُخادنةِ والمُعاشرةِ الجِنسِيَّةِ المُطلقةِ. ولقدْ لاَقت هذه الحركةُ نجاحًا وقبولاً كبِيرَين. يقول "بول روبين" الزعيم المالطوسي الفرنسي: "من المغتنمِ أنَّنا قدْ بلَغنَا من النَّجاحِ في مساعِينَا لمدةٍ ربعِ القرن الماضي أنَّه قد أصبحَ ولدُ الزانيَةِ في منزلةِ أولادِ الحَلالِ، فلا يبقَى

---

[1]– الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد ص 52.

[2]– انظر الحجاب ص 51.

[3]– انظر نفس المصدر ص 56–57.

[4]– انظر نفس المصدر ص 60.

[5]– انظر نفس المصدر ص 61.

[6]– عَرِفت هذه الحركة باسم الحركة المالطوسية الجديدة، وأمَّا الحركة المالطوسية –

بعدَ هذا إلاَّ أنْ يكونَ أولادُنا جميعًا من هذا النَّوعِ الأَولَ قط، حتَّى نَستريحَ من هذه الموازنةِ بينَ النَّوعينِ من الأولادِ.[1]

وهكذا فقدَ الغربُ خَشيةَ الله تعالى، وأخذَ يَتَخبَّطُ في حالةٍ من الضَّياعِ والاضطرابِ، وخرَجت نساؤهُ على القيمِ والأخلاقِ بفضلِ الحضارةِ المُعاصرةِ، التي أَباحت للفردِ أنْ يفعلَ ما يشاءُ، وليس للمجتمعِ أنْ ينتزِعَ منه حريَّتَه الشَّخصيَّةُ، وأَباحَت هذه الحضارةُ الاختلاطَ الفاضحَ بين الجِنسينِ، وبذلك انتشرَ الزِّنا والعهرُ، وراجت وسائلُ منعِ الحملِ وإسقاطُ الجَنينَ، وانتشرت الأمراضُ الجِنسِيَّةُ الخبيثةُ، والجرائمُ الخُلُقيَّةُ العديدة، وكَثُرَ أولادُ الحرامِ، وكثُرت الأُمَّهاتُ العذارى، وتفكَّكَت الأُسرةُ وفَسَدَ نظامُها، وكثُرت حوادثُ الطَّلاقَ، واضمَحلَّت القوى الجسديَّةُ عند الرِّجالِ، وأصبحت الحياةُ الغربيَّةُ أقربَ إلى البَهيميَّةِ، حتَّى إنَّ من الحيوانات ما تستحيَ أن تقترفَ ما يفعلُه الغربيُّ من فجورٍ سافرٍ.

ويرى المودوديُّ أنَّ العواملَ الرَّئيسيَّةَ التي أدَّت إلى الحريَّةَ التَّامةَ والإباحيَّةَ المُطلقةِ والفسادِ الخُلُقيِّ المشين في العالم الغربي إنَّما تنحصرُ في أمورٍ ثلاثةٍ هي: ظهورُ النَّظريَّاتِ الخُلُقيَّةِ الجديدةِ، وآثارُها الخطيرةُ في الحياةِ الفرديةِ، ومبادئِ النِّظامِ الرأسماليِ، والنظامِ السياسي الديمقراطي. وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ هي التي أَدَّتْ إلى وصولِ الغربِ إلى هذه الحالةِ من الحياةِ الحيوانيَّةِ.[2]

وفي الصفحاتِ القادمةِ أعرضُ تصويرَ المودودي للمشكلاتِ العديدةِ، التي تعيشها أوروبا وأمريكا في ظلِّ الحضارةِ المُعاصرةِ التي تَتَميَّزُ بالإباحيَّةِ المُطلقةِ.

1- انتشار الأمراض الجنسية:

يقول المودوديُّ: "إنَّ هناك أمرين لا ثالثَ لهما يُثبتان النِّساءَ – بعد خشيتهن لله تعالى – على جادةِ الأخلاقِ ومعيارها الأعلى، هما حياؤهن الفطري، وخوفهن من أنَّ ولادةَ ولدِ الزِّنا تَفضَحُهُنَّ في البيئة. أمَّا الحاجزُ الأوّلُ منهما فقد أزاحتهُ المدنيَّةُ الجديدة إلى حدٍ كبيرٍ، فأنَّى للحياءِ أنْ يبقَى منه بارقةٌ بعدَ الاختلاطَ العلني بينِ الرِّجالِ والنِّساءِ في محافلِ الرَّقصِ والغناءِ والخمرِ، وسواحلِ البِحارِ ومسابحِ الملاهي، وأمَّا الخوفُ من ولادةِ ولدِ الزِّنا، فإنَّ الرواجَ العامَ لوسائلِ تَحديدِ النَّسلِ قد جعلتهُ أيضًا أثرًا بعدَ عينٍ، وشيئًا يمتُّ إلى الماضي، ولأجلِه قدْ أصبحَ الرِّجالُ والنِّساءُ جميعًا أنه قد نالوا إجازةَ عامَّةَ باقترافِ الزِّنَا. ومع كُثرةِ الزِّنَا لابدَّ أنْ تَتَفشَّى الأمراضُ الخبيثةُ.[3]

---

[1]- انظر الحجاب ص ص 68.

[2]- انظر الحجاب ص 75، ولمعرفة تأثير النظامين الرأسمالي الاقتصادي والديمقراطي السياسي في النواحي الاجتماعية والأخلاقية وفي العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. انظر نفس المصدر الصفحات 67-74.

[3]- انظر حركة تحديد النسل ص 26.

وينقل المودوديُّ عن المصادرِ الغربيَّةِ ما يؤكِّدُ على انتشار الأمراضِ الجنسيَّةِ الخطيرةِ التي وجدَت في المجتمعات الغربيَّةِ نتيجةَ الإباحيَّةِ والفوضى الجنسيَّةِ التي تعيشُها تلكَ المُجتمعاتِ. ففي أَمريكَا التي تَدَّعي التَقدُمَ والرقيَ الحضاري انتشرَ مرضَا السَّيلان والزُهرى بصورةٍ رهيبةٍ، أفزَعت العقلاءَ من أطبائِهم. يقول الطبيبُ الجَرَّاحُ "توماس باران" مُتَحدِّثًا عن مرضِ الزُهريِّ: إنَّه افتكُ وأضرُّ بمائةِ مرةٍ من مرضِ فالج الأطفال، وإنَّ خطرَه في أمريكا مثل خطرِ السَّرطان، وحُمَّى الدق والتهاب الرئةِ، حتَّى أنَّ واحدًا من كلِّ أربعةِ أشخاصٍ إنَّمَا يذهبُ ضَحيَّةَ الموتَ بسببَ الزُّهريِّ مباشرةً أو غيرَ مباشرةٍ، ويعلِّقُ الأستاذ "بال لنيدوس" على رأيِ الدكتور باران بقولِه: "لقد كانت الأمراضُ الخبيثةُ في تضاؤلٍ وانحطاطٍ لرواجِ الأدويةِ الجديدةِ واستعمالها بعدَ سنة 1947م، ولكنَّها نكصَت مرةً أُخرى، وحادت سيرتها الأولى منذ 1955م، ففي مدنِ أمريكا كلِّها تقريبًا نجدُ أنَّ مرضَ الزُّهريِّ والسيلان في انتشارٍ وتقدمٍ بسرعةٍ لا توصَفُ، وأنَّ أكثرَ من يفشو فيهم هذان المرضان همُ الأحداثِ من الفِتيانِ والفَتياتِ الذين هم أقلُّ من عشرين سنةٍ، بل الحقيقةُ أنَّ نصفَ المصابين بهذين المرضين هم هؤلاء الأحداث.[1]

ويقدِّرُ الأطباءُ المختصُّون أنَّ 60 % من الشباب الأمريكي مصابون بمرضِ السَّيلان، منهم المتزوجون والعزَّابُ. وأن 75% من النساء اللواتي تُجرَى لهنَّ العمليَّةَ الجراحيَّةَ على أعضائِهنَّ الجنسيَّةِ متأثرا تٌ بهذا المرضِ. وقد أُنشئِتُ في أمريكا لمعالجةِ الأمراضِ الجِنسيّةِ فقط ستمائة وخمسون مستشفى، وخلاصةُ القولِ – كما ذكر المودوديُّ– إنَّ تسعين في المائة من أهالى أمريكا مصابون بهذه الأمراضِ الجِنسيَّةِ الفتَّاكةِ.[2]

وأمَّا في بريطانيا فإنَّ الأمراضَ الجنسيَّةَ تنتشرُ بصورةٍ رهيبةٍ في كثيرٍ من المدنِ البريطانيةِ، لدرجةِ أنَّ الأدويةَ الجديدةَ القاتلةَ لجراثيمِ هذهِ الأمراضِ لمْ تَعُدْ تجدي، فقد نشرت مجلَّةُ ريدرز دايجست في عددِ أغسطس 1951م مقالاً تَحدَّثَت فيه عن سَريانِ الأَمراضِ الجنسيَّةِ في المجتمعِ البريطاني، وازدِيادِ عددِ المصابين بهذه الأمراضِ. وقد ذكر الكاتبان لهذا المقال: "أنَّ هذا الداءَ الماحقَ، أي هذه الأمراضُ الخبيثةُ منتشرةٌ على نطاقٍ واسعٍ بينَ الشَّعبِ الإنجليزي كلِّهَ، وأنَّ أكثرَ ما يدعو إلى الحزنِ والأَسى من نواحيه أنَّه متدفقٌ كالسَّيلِ المنجرفِ في الأحداثِ من الفِتيانِ والفِتياتِ بصفةٍ خاصَّةٍ".[3]

وفي فرنسا التي رفعت ثورتُها شعاراتِ الحُريَّةِ والمساواةِ والأخاءِ فقد انتشرت الأمراضُ الجنسيَّةُ، والتي أهلكت كثيرًا من الشعبِ الفرنسي، يقول الدكتور "ليزيد": إنَّه يموتُ في فرنسا

---

[1]– انظر حركة تحديد النسل ص 26. الإحصائيات الواردة هنا قديمة، إذ تم تأليف هذا الكتاب في الفترة 1980–1982م.

[2]– انظر الحجاب ص 108.

[3]– انظر حركة تحديد النسل ص 32. وانظر نص المقال نفس المصدر ص 31، 32.

ثلاثون ألف نسمة بالزُّهري، وما يتبعُها من الأمراضِ الكثيرة في كلِّ سنة. وهذا المرضُ هو أفتكُ الأمراضِ بالأُمَّةِ الفرنسيَّةِ بعد حُمَّى الذُوق.[1] واضطرَّت الحكومةُ الفِرنسيَّةُ إلى إعفاءِ خمسةٍ وسبعينَ ألف جُندي من الخدمةِ العسكريَّةِ في السنتين الأَوْلَيَيْنِ من الحربِ العالميَّةِ الأولى، لكونِهم مصابون بمرضِ الزَّهري. وفي ثكنةٍ عسكريةٍ متوسطة أصيبُ 242 جندى فرنسي بهذا المرضِ نفسِه.[2]

وأمَّا بالنسبةَ لبقيّةِ دولِ أوروبا، فإنَّ ما ذكرنَاه عن أمريكا وبريطانيا وفرنسا ينطبقُ تمامًا على هذهِ الدُّولِ، فقد أكَّدَت الإحصائياتُ التي أصدرتها منظمةُ الصِّحةُ الدوليَّةُ أنَّ ستةَ عشرَ بلدًا من مُختلَفِ العالمِ قد انتشرَ فيها مرضا الزُّهريِّ والسَّيلانِ كالوباءِ المَاحِقِ.[3]

2- كثرةُ الفواحشِ والجَرائمِ :

إنَّ إعطاءَ الفردَ الحريَّةَ التَّامَّةَ، وتمتُّعَ المجتمعِ بالإباحيَّةِ المُطلقةِ لابدَّ أن تودي إلى كثرةِ الجرائمِ في هذا المجتمعِ، ولاسِيَما إذا كان هذا المجتمعُ قدْ فقدَ خشيةَ الله تعالى، وتَنَكَّرَ للأخلاقَ الفاضلةِ والآدابِ الاجتماعيَّةِ الراقيةِ، وخاصةً إذا كان من المجتمعاتِ التي أَهدرتْهُ إنسانيَّةُ الإنسانِ، وأعلت من شأنِ الشَّهواتِ والمَلذَّاتِ الجِنسيَّةِ. إنَّ الحالَ التي وصلت إليها المجتمعاتُ الغربيَّةُ في ظلِّ الحضارةِ المُعاصرةِ أصبحت تُنذرُ بالخطرُ الذي يُهدِّدُ حياةَ هذه المجتمعاتَ ويقودُها إلى الهاويةِ، يقولُ الدكتور "سوروكن" الخبير الأمريكي بالشئون الاجتماعية في كتابه "السلوك الجنسي في الرجل"، ولعلَّنا لسنَا مع هذا بحاجةٍ إلى بيانِ المؤثراتِ والنتائجِ الشاملةِ التي تَتَرتبُ على هذا الاسترسالِ وراءَ الشَّهواتِ الجِنسيَّةِ العامة على الفردِ والبيئةِ والأُمَّةِ بصورةٍ عارمةٍ، وسواءٌ أَسمَّيتُم هذا الاسترسالَ "الحريَّةَ الجنسيَّةَ" أو "الفوضَى الجنسيَّةَ" فإنَّه لا تَتَبدَّلُ الحقيقةُ القائلةُ بأنَّ نتائجَه أبعدُ تاثيرًا من نتائجِ كلِّ الانقلابات التي شاهدتُها عبرَ التَّاريخَ حتَّى اليومِ.[4]

ولعلَّ على رأسِ ما يُنذرُ بالخطرِ فى المجتمعات الغربيَّةِ ويَتَهدَّدُ حياةَ النَّاسِ هناك كثرةُ الفواحشِ والمنكراتِ والجرائمِ الأخلاقيَّةِ وغيرِ الأخلاقيَّةِ. ولقد أثبتت الإحصائياتُ الصادرة من بلادِ الغربِ أنَّ نسبةَ الجريمةِ في ازديادٍ، فمثلاً الجرائمُ الجِنسيَّةُ التي اطلَعتْ عليها الشرطةُ البريطانيةُ سنة 1938م (283 ألف) جريمة، بينما بلغت عام 1950م (438 ألف) جريمة. أمَّا الجرائمُ الكبيرةُ فقد اطلَعت الشرطةُ منة 1940م على (مائة ألف) جريمة، بينما اطلَعَت الشرطةُ سنة 1908م على (330 ألف) جريمة.[5]

---

[1]- انظر الحجاب ص 92. وحمى الدق هي: حمى مستمرة لا تأتي على شكل نوبات

[2]- انظر الحجاب ص 91.

[3]- انظر حركة تحديد النسل ص 33.

[4]- انظر المصدر السابق ص 29.

[5]- انظر المصدر السابق ص 29-30.

يقول الكاتب البريطاني جورج رائيلى اسكان في كتابه "تاريخ الفحشاء": "قد أصبحَ تعاطي الفجورِ وعدمِ التَّصونِ، بل اتخاذُ الأطوارِ السَوقيَّةِ، معدودًا عند فتاةِ العصرِ من أساليبِ العيشِ المُستجدَّةِ، ويدخلُ في هذهِ الأساليبِ أيضًا: التَّدخينُ واستعمالُ الخمورِ الحامضةِ، وصبغِ الشِّفَاة بالأصبعِ الأحمرِ، وإظهارِ الخبرةِ بالمعلوماتِ الجنسيَّةِ، وتدابيرِ منعِ الحملِ، والتَّحدُّثِ في الأدبِ الفاحشِ. ولا تزالُ أكثرُ النِّساءِ اللاتي يزاولْنَ العلاقاتَ الجنسيَّةَ قبل الزواج من غير ما حرجٍ. وفي حكمِ النَّادرِ وجودُ الأبكارِ التي يكنَّ في الحقيقةِ والواقعِ أبكارًا عندما يَعقدنَ النِّكاحَ أمامَ منبرِ الكَنيسَةِ.[1]

وكثُرَت في المجتمعَ الفرنسي الفواحشُ، فأصبحَ البِغاءُ حرفةً منظمةً وتجارةً رائجةً رابحةً، يقول "بول بيورو": إنَّ هذا العمل (البِغَاء) قد أصبحَ في زمانِنَا نظامًا محكمَ التَّركيبِ، يجري بمَا شئتَ من التَّنظيمِ على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين، ويخدُمَهُ ويعملُ فيه أربابُ القلمِ وناشرو الكتبِ، والخطباءِ والمحاضرون، والأطباءُ والقابلاتُ، والسُّياحُ التِجاريون، ويُستعملُ له كلَّ جديدٍ، من فنونِ النَّشرِ والعرضِ والإعلان.[2]

3- كثرةُ وقوعِ الطَّلاقِ وتَفكُّكُ النِّظامِ الأُسَرِّي:

لقد فَتَحَت الحضارةُ المعاصرةُ المجالَ أمامَ المرأةَ للعملِ في شتَّى الميادين. وأصبحت المرأةُ التي تكسبُ قوتَها بيدَها ليست في حاجةٍ إلى رجلٍ في أيِّ شأنٍ من شئونها – اللهم– إلاَّ قضاءَ الشَّهوةِ، وهذه يمكنُ أنْ تَجدَها عندَ كلِ رجلٍ، فهي بالتالي ليست بحاجةٍ إلى زواجٍ شرعيٍ، يُقيِّدُ حريَّتَها، ويمنعُها من اتِّخاذِ الأخدانِ والعشَّاقِ. لذلك نظرت أكثرُ النِّساءِ الغربيَّاتِ إلى الزَّواجِ نظرةَ احتقارٍ وإزدراءٍ. كتبَ القاضي الأمريكي "لندسي" معبرًا عن أفكارِ النِّساءِ في بلادهِ "ما لي أتزوج؟" وهولاءِ أترابي قد تَزَوجنَّ في السنتين الماضيتين، فماذا جَنَيْنَ منه؟ إلاَّ أنْ كانَ نصيبُ نصفهنَّ منه الطلاقَ. وإنَّى اعتقدُ أنَّ لكلِّ فتاةٍ في هذا العصرِ حقًا طبيعيًا في حُريَةِ العملِ والتَّصرفِ فيمَا يَتعلّقُ بالحبِ.[3] وأمَّا النساءُ اللواتي تَزوجْنَّ فسرعانَ ما تُبَدِّلُ الحضارةُ الغربيَّةُ تفكيرَهُنَّ ويَملْنَ إلى الابتعاد عن الزَّاوج. يقول الخبيرُ الأمريكيُ "سوروكن": إنَّ قداسةَ العلاقةِ الزوجيّةِ تُهانُ الآن مرةً بعدَ مرةَ بفظاعةٍ وعلانِيَةٍ أشدَّ بالنسبةَ للماضِي، حتَّى لقدْ أَصبحَ كلُّ بيتٍ بمثابةِ مَحلٍ لوقوفِ السيارةِ، حيثُ لا ينزلُ الزوجانِ إلاَّ ليلةً أو بعضَ ليلةٍ، بدلاً من أن يكونَ منزلاً يَنزلُ فيه الزوجان، ويعيشان عيشةً هادئةً مستقرةً.[4]

---

[1]– نقلاً عن كتاب الحجاب للمودودي ص 115.

[2]– نقلاً عن المصدر السابق ص 81.

[3]– نقلاً عن المصدر السابق ص 110.

[4]– حركة تحديد النسل ص 38.

ويُعَلِّقُ القاضي "لندسي" على كثرةِ حوادثِ الطَّلاقِ في المجتمعِ الأَمريكيَ بقولِه: "الحالُ على هذا –كما هو الموجود– فلابدَّ أنْ تكونَ قضايا الطَّلاقِ المَرفوعةِ إلى المحاكمِ في معظمِ نواحي القُطرِ على قَدْرِ ما يُمنَحُ فيها من الامتيازاتَ من الزواج".[1]

وفي فرنسا كثُرَت حالاتُ وقوعِ الطَّلاقِ لدرجةِ أنَّ محكمةَ الحقوق بمدينة "سين" فَسَخَت فى يوم واحد 294 زواجًا. وبَلَغَتْ حَالاتُ الطَّلاقِ في فرنسا عاما 1913م، ستة عشر ألف حالة، وفي عام 1931م بلغت إحدى وعشرين ألف حالة.

والباحثُ في أسبابِ الطَّلاقِ في المجتمع الغربِّي لا يملك نفسَه من الضَّحكِ عليها لتفاهتها. فمثلاً يقعُ الطَّلاقُ عندهم لاشمئزازِ أحدُ الزوجين من غظبط الآخر في النَّومِ، أو كون أحدِهما لا يحبُّ كلبَ الآخر.[2] وقد طالعتنَا الصُّحفُ أنَّ رجلاً طلَّقَ زوجته لأنها أبتْ إلاَّ أنْ ينامَ الكلبُ بينهما في غرفةِ النَّومِ.

ولقد عالجَ مفكرو الحضارة الغربيَّةِ مشكلةَ كثرةِ الطَّلاقِ بابتداعِ طريقةٍ جديدةٍ تُسمَّى بـ (الزواج الاختياري)، وهي أنْ يعاشرَ الرَّجلُ المرأةَ مدَّةً من الزَّمانِ قبلَ أنْ يُعقدَ بينَهما الزَّواجُ، فإنْ تآلَفت قلوبُهما أُبرِما عقدَ الزَّواج، وإلاَّ فليذهبْ كلٌّ منهما لسبيلِه، ليبحثَ هو عن زوجةٍ أخرى، ولتبحثَ هي عن زوجٍ آخر. وأخذت روسيا الشيوعيَّةُ بهذهِ الطريقةِ الأوربيَّةِ وسمَّتها "الحبُّ الطَّليقُ".[3]

إنَّ تأثيرَ الحضارةِ المُعاصرةِ على المرأةِ في الغربِ جعلها تَنفرُ من وظيفَتِها الفطريَّةِ في إنجابِ الأطفالِ ورعايتِهم والقيامِ بشئونِ البيتِ، وأَصبحَ من العبثِ عندَهُنَ أنْ تبقىَ إحداهُنَّ في البيتِ، وتتركَ ما فى خارجِه من فُرَصِ اللَّهوِ الحرامِ والمتعةِ الرَّخيصةِ، لذلك عَمَدَت الكثيرُ منهنَّ إلى وأدِ اولادِهِنَّ حتَّى لا يُشكِّلُ الأطفالُ عليهنَّ عبئًا ثقيلاً في التَّربيَّةِ والرِّعايةِ اللاَّزمة، وقد أَتاحَت لَهُنَّ الحضارةُ وسائلَ منعِ النَّسلِ والقضاءِ عليه. فَكَثُرَت الأَدويَةُ والعقاقيرُ التي تَحولُ بينَ النِّساءِ والحملِ، وإنْ قُدِّرَ له الوجودُ فالإجهاضُ وعملياتُ الإسقاطُ كفيلةٌ بالقضاءِ عليه. وإنْ كُتِبَت له الحياةُ فالموتُ حرقًا أو بالآلاتِ الحَادَّةِ خيرُ وسيلةٍ للتَّخلُصِ منه.

يقولُ "بول بيورو" العميدُ السابقُ بإحدى الكلِّياتِ الفرنسية: "كثيرًا ما نَطَّلعُ في الجرائدِ على مصائبِ الأطفال الذين يَسُومُهُم آباؤهم سوءَ العذابَ. وهذه الجرائدُ لا تذكرُ من تُلكُمِ الأحداثِ إلاَّ ما يكونُ له خطرًا. ولكنَّ النَّاسَ يعلمونَ أيَّ قَسوةٍ يُعاملُ بها هؤلاء الضيوفِ الثُّقلاءِ، الذين برِمَ بهم آباؤهم لمَّا نَغَصَّوا عليهم لذَّةَ الحياة... وهذه الأرواحُ المسكينةُ لا تجدُ

---

[1]– نقلا عن الحجاب ص 110.

[2]– نقلاً عن المصدر السابق ص 95.

[3]– نقلاً عن المصدر السابق ص 112.

إلى الوجود سبيلاً إلاَّ حينما تنكصُ بعضُ النِّساءِ عن الإقدام على الإسقاطِ. ولكنَّهم إذا ما جاؤوا في هذه الدنيا، يذوقونَ وَبَالَ مَجيئِهم فيها حقَّ مذاقِه.[1]

ولقد نشَرَت الصُّحفُ الفِرنسيَّةً بعضًا من حوادثِ قتلِ النِّساءِ لأولادِهِنَّ الصِّغار، فإحداهُنَّ خنقَت طفلَها، ولمَّا رأت فيه بَقيَّةً من الحياةِ قذفَت بهِ إلى الحائطِ وشَجَبَت رأَسَه. وأُخرَى حاولَت نزعَ لسانِ ولدِها، ثمَّ حَطَمَّت رأَسه. وثالثةٌ أماتت طفلَها غرقًا، في الوقتِ الذي كان فيه أقاربُها يربُّوْنَ لها ولدًا سابقًا، وكانوا مُستعدِّينَ لتربيَةِ هذا الآخرَ.[2]

وممَّا يَدلُّ على فَسادِ النِّظامِ الأُسري في ظلِّ الحضارةِ الغربيَّةِ حالاتُ تَشرُّدِ الشَّبابِ التي كَثُرَت في المجتمعاتِ الأوربيَّةِ، ففِي أمريكا قَبَضت الشُّرطةُ سنة 1957م على حوالي 2 مليون و980 ألف شخص لارتكابِهم مُختلفِ الجَّرائمِ، وكانت أعمارُ 2 مليون 53 ألف شخص منهم أقلَّ من ثماني عشرة سنة.[3]

وعن أَخطارِ الحضارةِ على النِّظامِ الأُسريِّ في المجتمعِ الفرنسي كَتَبت إحدى المَجلاَّتِ البَّاريسيَّةِ تقولُ: إنَّ ما قد نَشَأَ بينَنَا اليومَ من قلَّةِ الزَّواجِ وكثرةِ الطَّلاق وتفاحشُ العلاقاتِ غيرِ المشروعةَ – الدَّائمةُ والعارضةُ– بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ، يدلُّ كلُّه على أنَّنا راجعون القَهقَرى إلى البَهيمِيَّةِ، فالرَّغبةُ الطَّبيعيَّةُ في النَّسلِ إلى التَّلاشِي، والجيلُ المولودُ مُلقيٌ حبلُه على غاربِه، والشعورُ بكونِ تعميرِ الأُسرةِ والبيت لازمًا لبقاءِ المدنيَّةِ والحكمِ المستقلِ يَكادُ ينتهِي من النُّفوسِ.[4]

وبعدُ هذهِ هيَ الحياةُ التي تَعَيشُها المجتمماتُ الأوربيَّةُ في ظلِّ الحضارةِ المعاصرةِ التي أَطلقَت للفردِ العنانَ، وتركتْهُ يُمَارِسُ حريَّتَه كيفَ يَشاءُ تَحتَ حَمايةِ القانونَ وحِرَاستِه، ومباركةِ المجتمعِ، ورايةِ العلومِ التَّجريبيَّةِ، وقد أسهبتُ في النَّقلِ عن كتبِ الأُستاذِ المودودي التي تحدَّث فيها عن ويلاتِ الحضارةِ الغربيَّةِ بشهادةِ أَصحابِها ومن مصادرِهم العِلميَّةِ، لكيْ أُعطِيَ القارئَ فكرةً واضحةً عن الحضارةِ المُعاصرةِ التي جَلَبَت للإنسانِ الأوربِيِّ الضَّجرَ والاضطرابَ والقلقَ النَّفسِيَّ والأمراضَ الخبيثةَ، وسَلبَت منه نِعمةَ الأمنِ والاطمئنانِ والاستقرارِ وراحةَ النَّفسِ والمالِ، وجلَبت للأُسرةِ الأُوربيَّةِ التَّفكُّكَ والانحلالَ والضَّيَاعَ، وجَلَبت للمجتمعات الأوروبيَّةِ أسبابَ الدَّمارِ والهَلاكِ. وجلَبَت للعالمِ الإسلامي الذي تأَثَّر بها ما جلَبَت من وَيلاتٍ ونَكباتٍ، هو في طريقِه إلى نفسِ النَّهايةِ التي انتهى إليها الغربُ، اللهمَّ إلاَّ إذا رجعَ العالمُ إلى رُشدِه، وإلى الدِّينِ الذي ارتضَاهُ اللهُ تعالَى لَه.

---

[1]– نقلاً عن المصدر السابق ص 97.

[2]– المصدر السابق ص 98.

[3]– تحديد النسل ص 30.

[4]– نقلا عن الحجاب 112.

ولكي نُوضِّحَ تَبديلَ مَعالِمِ الفطرةِ الإنسانيةِ – التي فطرَ اللهُ تعالى النَّاسَ عليها– في نفوسِ من ابتعدوا عن هدايةِ الدِّينِ نذكرُ الأخطارَ التي جلبها النظامان: النِّظامُ الرأسماليُّ السائدُ في أمريكا وأوربا الغربِيَّةِ، والنِّظامُ الشيوعيُّ السائدُ في روسيا وأوربا الشَّرقيِّةِ.

أولاً: النِّظامُ الرأسمَاليُّ:

إنَّ أعمالَ الرأسمَالِيين من الطبقةِ البرجوازية تدلُّ على أنَّهم مُفرِطون في الأَثرةِ والأَنانيةِ وحبِّ مصالحِهم ومنافعِهم، وهم مجمعونَ في الأمرِ على مصالحِ جمهورِ العاملين والأجراءِ والمُستهلكين، وعلى مصالحِ الحكومةِ التي حَقَّقَت لهم الأمنَ والرفاهيَّةَ.[1] يقولُ الاقتصاديُّ الشهيرُ آدم سميث: "قلمَّا يَجمعُ التَّجارُ وأهلُ الحِرفِ والصناعاتِ مجلسٌ من المجالسِ إلاَّ انتهى بمؤامرةٍ منهم على مصلحةِ الجمهور، أو قرارٍ لرفعِ أسعارِ البضائعِ، حتَّى لا تكادُ تخلو المناسباتُ التي يتسنَّى لهم الاجتماعُ فيها من اقترافٍ مثلِ هذه الجَريمةِ الشَّنيعةِ.[2]

يقولُ المودوديُّ: فالبطالةُ جزءٌ لا يتجزأُ من جسدِ النِّظامِ الرأسماليِّ، سواءٌ أكانت الأيامُ أيامَ نفاقِ الصناعة والتجارةِ أو كسادِها.[3] ومن المعلومِ أنَّ البطالةَ لها أثَرُها الواضحُ في حياةِ المجتمعِ الاجتماعيةِ والأَخلاقيَّةِ، فكلَّما كَثُرَ عددُ العاطلينَ زَادَتْ نِسْبَةُ الجرائمِ والسَّرقاتِ وحالاتِ التَّشرُدِ والضَّياعِ، وكَثُرَت الأمراضُ النَّفسيَّةُ.[4]

إنَّ المجتمعاتِ الرأسماليَّةَ تُعاني من الإفلاسِ في مجالِ القيمِ والفضائلِ والعواطفِ الإنسانيَّةِ، فلا تَعرِفُ هذه المجتمعاتُ المواساةَ والتَّعاونَ والتَّراحمَ والتَّضحيَّة والإيثار، لقد انتشرت عند أفرادها الأنانية المفرطة والجشع والطمع، فتثقُلَ الولدُ على أَبيه، والأخُ على أَخيِه، وأصبحَ كلُّ واحدٍ منهم لا يهتمُّ ألاَّ بمصلحةِ نفسِه وحَسْب.[5]

ومن سيِّئاتِ هذا النِّظامِ أنَّه يبيحُ للتُّجارِ والصُنَّاعِ إتلافَ البضائعِ المُنتجةِ من الفواكهِ والحبوبِ وغيرِها من الموادِ الاستهلاكيَّةِ، وذلك عن طريقِ حرقِها أَوْ إلقائِها في البحرِ، حتَّى لا تصلَ إلى السوقِ بكمياتٍ تَسمَحُ بِخفضِ أَثمَانِها، وبالتَّالي يتمكنُ المحتاجون من شرائها.[6]

ولقد طالعتنا الأخبارُ بأنَّ البرازيل قامت بإتلافِ آلافِ الأَطنانِ من البُنِّ حتَّى لا ينخفضُ سِعرهُ في الأَسواقِ العالميَّةِ المُستهلِكةِ له. ومن العيوبِ الخطيرةِ التي يَتَّسمُ بها النِّظامُ

---

[1]– انظر أسُسَ الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ص 45،11.

[2]– نقلاً عن المصدر السابق ص 45، وآدم سميث: (1733–1790م)، اسكتلندي الأصل، من كبار المفكرين الاقتصاديين الغربيين، عمل مدرسًا بجامعة "جلاسجو"، أخرج أوَّلَ دراسةٍ جامعةٍ منظمةٍ لعلم الاقتصاد، وهو من دعاةِ الحريَّةِ الاقتصادية، أهم مؤلفاته: ثروة الأمم، وهذا الكتاب يعدَّ أساسَ علمِ الاقتصاد الحديث. انظر الموسوعة العربية الميسرة 1016/2.

[3]– انظر أسُسَ الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ص 102.

[4]– انظر نفس المصدر ص 36، 46، 47، 102.

[5]– انظر أسُسَ الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ص 49، 55.

[6]– انظر نفس المصدر ص 51، 103، 185.

الرأسماليُّ إباحتُه للاحتكارِ والرِّبا، وكلاَهُمَا شرٌ للإنسانِ. فأصحابُ الأموالِ من أربابِ التِّجارةِ والصناعةِ يَلجأونَ إلى الثَّراءِ الفَاحشِ عندَمَا يقومونَ بِشراءِ الحاجاتِ والبضائعِ الاستهلاكيَّةِ وإدِّخَارِها حتَّى تَنعدمَ من السُّوقِ، ويكثرُ عليها الطَّلبُ، وبالتَّالي يرفعونَ الأسعارَ، ويستغلُّونَ حاجةَ النَّاسِ إليها. وأمَّا بالنِسبةِ للرِّبا، فيقول المودوديُّ: "والتجارةُ والرِّبَا كلٌ منهما يستلزمُ الآخرَ في هذا النِّظام، ولا يترقَّى إلاَّ به، ولولا الرِّبا لتداعَى النِّظامُ الرأَسمَاليُّ".[1]

ويقول: "ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ الرِّبا ما زالَ منذُ قديمِ الزَّمان موجودًا في أكثرِ مجتمعاتِ العالم، باعتبارِه سيئةٍ بغيضةٍ احتظنتها قوانينُ العالمِ على كُرهٍ منها في أكثرِ الأحيان. ولكنَّ الذي امتازَ بِه مفكرو طبقة البِرجوازِيَّةِ في الجاهلِيةِ الغربيَّةِ الجديدةِ بعدَ الجاهليِّةِ العربيَّةِ القديمةِ، أنَّهم جعلوا الرِّبا هو الصورةُ المشروعةُ الوحيدةُ للتِّجارةِ، وللبناءِ الصحيحِ الوحيدِ للنِّظامِ الماليِّ كلِّه، ووضعوا قوانينَ البلادِ على طُرُقٍ جعلَتها سَندًا وعَوْنًا لمصلحةِ المُرَابِي دونَ مصلحةِ المَدِينِ، فأصبحَ أرقّهُ النَّاسِ وأَسعدُهم في المجتمعِ من جَمَعَ المالَ وكَنَزَهُ بطريقةٍ من الطُّرقِ أو حيلةٍ من الحيلِ. أمَّا أصحابُ المواهبِ الفكريَّةِ، والقائمون بالعمل، وواضعوا المشروعاتِ التِّجاريَّةِ ومُنظِّموُها، ومسيِّروا التجارةِ في كلِّ مرحلةٍ من مراحلِها، والقائمون بجميعِ الخدماتِ المُتعلِّقةِ بإنتاجِ الأدواتِ الاستهلاكيَّةِ وتهيئتِها، فقد أصبحوا جميعًا لا يُقامُ لهم وزنٌ إزاءَ ذلك الفردِ الذي يَقرِضُ مالَه للتِّجارةِ، ثمَّ يجلسُ في بيتِه وادِعًا مطمئنًا".[2]

ويُبَيِّنُ المودوديُّ مدَى الربحِ الفاحشِ الذي يعودُ على المُرَابي الذي يَستخدِمُ ما يشاءُ من الوسائلِ والطُّرقِ التي تحلو له من أجلِ تنميَةِ ثروتِه وزيادةِ شرائِه. ويبيَّنُ أيضاً مدى نفوذِهِ في الدَّولةِ، بحيثُ يستطيعُ استعبادَ الحكومةِ والتُّجارِ والصُّناعِ الذين يَضطرُّون نتيجةَ الخللَ في توزيع الثروةِ – للاقتراضِ منه،[3] ثمَّ يضيفُ قائلاً: "هكذا يَظلِمُ هذا النِّظامُ الماليُّ المبنيُّ على الرِّبا العاملينَ الحقيقيينَ المُنتِجِينَ للثَّروةِ من كلِّ جهةٍ ومن كلِّ وجهةٍ ظلمًا شاملاً، حيثُ قدْ فوَّضَ أزمةَ الاقتصادِ الاجتماعي كلِّه إلى طائفةٍ من المُتَسَولِينَ والرأسماليِّينَ المستأثِرِينَ، الذين لا تَهُمَّهُم سعادةَ المجتمعِ ولا فلاحَهِ، ولا يُسدونَ إليه نوعًا منَ الخدمةِ. لكنَّهم لمَّا كان في أَيدِيهم روحُ الشُّؤونِ الاقتصاديَّةِ كلِّها وهو رأسُ المال، وقد أعطَاهم القانونُ الحقَّ في جمعِه واكتنازِه والمُرابَاة فيه، لمْ يكونوا المستغلين الرئيسيين للثَّروةِ النَّاشئةِ من جُهودِ المجتمعِ العامَّةِ فَحَسبِ، بلْ أَصبحوا قادرينَ أيضًا على أنْ يَستَغِلُّوا المجتمعَ كلَّه في مصالحِهم الشَّخصيَّةِ، ويَلعبُوا بِمقادِيرِ الدُّولِ والشُّعوبِ.

---

[1]– انظر نفس المصدر ص 13.

[2]– انظر نفس المصدر ص 53–54.

[3]– انظر نفس المصدر ص 54–55.

أقول: إنَّ المرابينَ الذين يُسيطرونَ على المجتمعاتِ الغربيَّةِ، والذين يلعبون بمقاديرِ الشُّعوبِ هم اليهودُ، الذين عَرَفوا كيفَ يَستَغلُّونَ البَشريَّةَ عن طريقِ السَّيطرةِ على الدوائرِ والمؤَسَّسَاتِ والمَصَارفِ الماليَّةِ العالميَّةِ.

إنَّ الراسماليَّةَ التي منحت الأفرادَ الحريَّةَ الشَّخصيَّةَ "ليس في مبادئِها ونظريَّاتِها شيءٌ يبعثُ الأفرادَ على القيامِ بخدمةِ مصالحِ المجتمعِ المُشتركةِ، ويجبرُهم على ذلك عند الحاجةِ إجبارًا. بل هي تُنشِيءُ فيهم عقليَّةَ تُحَبِّبُ إليهم ذواتِهم، وتحملُهُم على محاربةِ مصالحِ المجتمعِ في سبيلِ مصالِحِهم الشَّخصيَّةِ، حتَّى يختلَّ التوازنُ في توزيعِ الثَّراءَ بين الأفرادِ. فترَى في جانبٍ أقليَّةً ضئيلةً ممَّن أسعدَهُم الحظُّ قد أَصبحوا من أصحابَ الملايين بوضعِ أيدِيهم على مواردِ ثروةِ الجماعةِ كلِّها، وهم لا يزالونَ يَسْعَونَ في ضمِّ ما تبَقَى من ثروتَها إلى أنفسِهم بفضلِ ما تمدُّهم به أموالُهم الطائلةُ وثرواتُهم المُدَّخرةُ من قوَّةٍ، وبالجانبِ الآخرِ ترَى الجمهورَ وعامَّةَ أفرادِ المجتمعِ لا تنفكُّ حالتُهم الاقتصاديَّةِ تَضمَحِلُّ يومًا فيومًا، حتَّى لا يَبقَى لهم نصيبٌ في توزيعِ الثَّروةِ إلاَّ قليلاً. ولا رَيبَ أنَّ أموالَ المشمولينِ الوافرةِ كثيرًا ما تُحدِثُ بمظاهرِها الخلاَّبَةِ الفاتنةِ تألقًا في مضمارِ التَّمدُنِ والحضارةِ يُعجبُ الأنظارُ ويأخذُ بالألبابِ في بدءِ الأمرِ، ولكنَّه لا يكونُ من عاقبةِ توزيعِ الثَّروةِ غيرِ المُتزِنِ إلاَّ أنْ يَنقَطِعَ الدَّمُ عن الدورانِ في جسمِ العالمِ الاقتصاديِّ، فتموتُ بعضُ أَعضائِه لِقلَّةِ الدَّمِ، ويفسُدُ بعضُها باجتماعِ الدَّمِ وكثرتِه فيها".[1]

وبعدُ تلكَ هي الحياةُ التي يَعيشُها الفردُ الغربِيُّ في ظلِّ النِّظامِ الرأسماليِّ، وهى كمَا ترَى حياةَ العبوديَّةِ للمادةِ، والجريِ وراءَ تحقيقِ رغباتِ النَّفسِ وأهوائِها، وهيَ حياةُ من أعرضَ عن الإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهجَ حياةٍ، وأقبل على المناهجِ الجاهليَّةِ يستمدُّ منها السَّعادةَ والرخاءَ، قال الله تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة:50.

ثانياً: النظامُ الشُيوعيُّ:

تقومُ الشُّيوعيةُ على إلغاءِ المِلكِيَّةِ الفرديَّةِ، وخاصةً في وسائلِ الإنتاجِ وجعلِ الملكيَّةِ في يدِ الدَّولةِ، فالمِلكِيَّةُ الفرديَّةُ في نظرِ الشيوعيين مصدرُ جميعِ الشُّرورِ والمفاسدِ، ونسَيَ هؤلاءِ الشُّيوعيِّينَ أنَّ حِرمَانَ الأفرادِ من المِلكِيَّةِ الشَّخصيَّةِ يؤدي إلى القضاءِ على حياةِ الإنسانِ المدنيَّةِ بالإضافةِ إلى خطرِهِ على الاقتصاد، وهذا الحرمان يقتلُ القُوةُ الحقيقيِّةُ الباعثةُ على الجدِّ والاجتهاد، فالفردُ لا يبذلُ جهدَه في السعيِّ والعملِ اذا لم تُرَاعَى مصلحتُه الشَّخصيَّةُ وحقوقُه الفرديَّةُ في التَّمَلُكِ. إنَّ النِّظامَ الشُّيوعيَّ سلبَ من الأفراد حريَّتهم ومشاعرَهم وأحاسيسَهم، وجعلَهم كالآلاتَ الصَّماءِ مقابلَ ما يُعطِيهم من الطَّعامِ واللِّباسِ والسَّكنِ.[2]

---

[1]- أُسُسُ الاقتصاد ص 14-15.

[2]- أُسُسُ الاقتصاد ص 15-17.

وعن سببِ تَسلُّطِ الشيوعيَّةِ على الأفرادِ وعدمِ قدرتِهم على أَحداثِ الثَّورة ضدَّها، يقول المودوديُّ: "فلولاَ ما يرزحونَ تحتَه الآنَ من الإطارِ الحديديِّ الشَّديدِ الدائمِ لأَتَوْا على النِّظامِ الشيوعي وقواعدِه بينَ عَشيَّةٍ وضُحَاهَا. وهذا ما جعلَ الحكومةُ الشيوعيَّةُ الروسيَّة اليومَ أكثرَ الحكوماتِ في الأرضِ جورًا واستبدادًا، قد بَطَشَت برعَّيتِها بطشًا شديدًا ما وُجِدَ ولا يُوجَدُ له مثيلٌ في حكومةٍ شخصيَّةٍ (فردِّيةٌ ديكتاتوريَّةٌ) أو جمهوريَّةٍ أُخرى في الأرضِ".[1]

إنَّ روسيا الشيوعيَّةِ لكي تُلْغِيَ الملكيَّةَ الشَّخصيَّةَ للأراضي ومعاملَ الإنتاجِ، ولكي تُنفذَ مشاريعَ الزراعةِ الجماعيَّةِ قامت بإرتكابِ المجازرِ الوَحشيَّةِ التي يُندَى لها جبينَ البَشريَّةِ، فسفكت دمَ تسعةَ عشرَ مليون نَسمَة، وحكمَت على اثنيِّ عشرَ مليون نسمةٍ بعقوباتٍ فادحةٍ مختلفةٍ، ونفِتْ عن البِّلادِ نحوَ خمسةَ مليون نَسمَة. حتَّى ضاقَ بأعمالِ الشيوعيِّين هذه أَخلصَ أَصدقائِها وأكبرُ دُعاتِها.[2]

ولقد أنكرت الشيوعيَّةُ الدِّينَ والأخلاقَ والقيمَ، وكلَّ مبدأٍ يحولُ بينَها من تَنفيذِ سياستِها في المجتمعاتِ التي أُبتُلِيت بِها. وحضَّ قادةُ الشيوعيَّةُ أَتبَاعهم على ممارسةِ القَسوةِ والظُلمِ والاضطهادِ والغدرِ والكذبِ والخداعِ، وتبنَّت كلَّ خُلقٍ ذميمٍ من أجلِ إحداثِ الثَّورةِ التي يَطمعونَ تَحقِيقَها. يقولُ لينين[3] أحدُ قادةِ الثَّورةِ الشَّيوعيَّة: ونحنُ نرفضُ كلَّ نظريَّةٍ للأخلاقِ بُنِيت على تصورٍ من تَصورَّاتِ العالم العلوي، أو كانت غيرَ مأخوذةٍ من تَصوُّرِ النِّزاعَ بينَ الطَّبقاتِ. وما الأخلاقُ عندنَا إلاَّ تابعةً كلَّ التَّبعيَّةِ للحربِ الطَّبقيَّةِ، فكلُّ شيءٍ تَمَسُّ إليه الحاجةٍ للقضاءِ على النِّظامِ الاجتماعي المستغلِ، وتَنظيمَ الطَّبقاتِ العَامِلةِ وجمعِ شملِها، هو مشروعٌ عندنَا من الوِجهةِ الخُلقِيةِ، وليست أخلاقُنا إلاَّ أنْ نَكونَ أقوياءَ مُنظَّمينَ، ونحارب الطَّبقاتَ المُستقلِّةِ بكلِ شعورٍ وأتمَّ وعيٍ. ولسنَا ممَّن يؤمنون بأنَّ للأخلاقِ مبادئَ أزليَّةً أبديَّةً. قد أخذنا على أنفسِنَا أن نأتيَ هذا الدَّجلَ من قواعدهِ. وما أخلاقُ الشيوعيين إلاَّ أنْ يُحارِبوا

---

[1]– أُسُسُ الاقتصاد ص 17.

[2]– نفس المصدر ص 72–73.

[3]– لينين: (1870–1924م)، اسمه الحقيقي فلاديمير ابليتش لينين أوليانوف، اعتنق الماركسية سنة 1894م، في التنظيمات الشيوعية التي كانت تعمل في روسيا وبقية أوروبا. في علم 1903م تزعم الأغلبيَّةَ الشيوعيَّة المُسمَّاة (بولشفيك). وفي عام 1921م أنشا الجريدة الشيوعية "برافدا". وفي عام 1917م نشبت الثورة الشيوعية التي أطاحت بالقيصر. واستطاع لينين وحزبه "بولشفيك" بعد تصفية الأحزاب الشيوعية الأخرى أن يستوليّ على الحكمِ، استمر لينين في حكم روسيا بالديكتاتورية والإرهاب حتَّى هلكَ. ولقد أدخلَ تعديلات على الماركسيِّةِ، أهم مؤلفاته "تطور الراسمالية في روسيا". انظر المنجد في الأعلام: مجموعة من المؤلفين، دار المشرق –بيروت– طبعة 11، 1981م ص 622.

لإقامةِ حكومةٍ قويَّةٍ مُستقلةٍ للعمَّالِ، ولابدَّ أن يستعانَ في هذا السَّبيلِ بكلِّ نوعٍ من أنواعِ المكرِ والخداعِ والغدرِ والكذبِ والحيلِ المختلفةِ والمناهجِ المُلفَّقَةِ".[1]

لقد انتشرت في المجتمعاتِ الشيوعيةِ كثيٌر من الأمراضِ الاجتماعية والمفاسدِ الخُلَقيَّةِ التي نشأت نتيجةَ حرمِان الفردِ من المِلكيَّةِ الشَّخصيَّةِ، فانتشرت الرَّشوةُ والخيانةُ والسَّرقةُ والغبنُ والفسادُ.[2]

وإذا كانت المِلكيَّةُ الجماعيَّةُ والعدلُ بينِ الأفرادِ من المبادئِ التي رفَعتها الشُيوعيَّةُ فإنّ هذاين المبدأين لا وجودَ لهُمَا في المجتمع الرُّوسي، فأعضاءُ الحزبِ الحاكمِ وقادتُه والمتعاونون معهم من العلماءِ والموظفينِ وأهلِ الفنِّ والصَّحافةِ يعيشونَ في تَرَفٍ عَجيبٍ. وباقي الشَّعبِ من المزارعين في المزارعِ الجمَاعيَّةِ، والعُمَّالِ في المَصَانعِ المُؤمَنَّةِ فيعيشونَ في ضيقٍ مادِيٍ وعَوَزٍ شَديدٍ، رَغمَ كونِ هولاء يَبذُلُونَ من الجهدِ والعملِ أَضعافَ ما يَكسِبونَ. إنَّ رواتبَ عامَّةِ العمَّالِ ومستوى حياتِهم في أمريكا وبريطانيا الرأسماليَتَيْنِ أحسنُ بكثيرٍ من رواتبِ العُمَّالِ ومستوى حياتهم في روسيا الشُيوعيَّةِ، التي تتبجحُّ بأنَّها حاميةُ الجماهير ومنقذةُ الطبقةِ الكادحةِ من نَيرِ المُستَغِلِينَ.[3]

ويُحَدِّثُنَا المودوديُّ عن الحكمِ الديكتاتوري السائدِ في البلادِ الشُيوعيَّةِ، ويضربُ لنا مثلاً بروسيا التي لا يستطيعُ الفردُ فيها أنْ يرفعَ رأسَه بكلمةِ نقدٍ للحزبِ الحاكمِ أو لمؤسساتِه ودوائرِه المختلفةِ، وإذا حاولَ أَحدُهم أن يعارضَ سياسةَ الحكومةِ فإنَّ مصيرَه الموتُ أو السجنُ مع الأشغالِ الشَّاقةِ في سبيريا الجليديَّةِ. ولقد استطاعَ الحزبَ الشيوعيُّ الحاكمُ السيطرةَ على البلادِ، وممارسةِ الظُلمِ والاستبدادِ ضدَّ الجماهيرِ الكادِحةِ عن طريق تحكُّمُهِ في الخبزِ والطعامِ اللذين هما هم الجماهير الروسية.

يقول المودوديُّ: أمَّا الآن – أي بعدَ قيامَ النِّظام الشيوعي في روسيا فعلاً– فتعالَ نَنظرُ فيما تجودُ بهِ هذه التَّجربةِ على أهلِ روسيا في حياتهم اليوميَّةِ، وما تأخذَه منهم. فلتوازن بين هذا وهذا لنتبيَّنَ الفرقُ بينهمَا. فالذي تجودُ عليهم بِه، هو:–

1– قد ضمنت لكلِّ فردٍ من الأفرادِ من العمل على الأقلِّ ما جعلَ من الممكنِ له أنْ ينالَ من الغذاءِ ما يُمسِكُ به ريقَه، ومن الملبسِ ما يَسترُ بِه جسدِه، ومن المسكنِ ما يأوي إليه.

2– وكذلك ضمنت له – بصفةٍ جماعيَّةٍ– أنْ ينالَ المعونةَ عندَ النَّوازلِ. فما هناك شيءٌ بعد هاتين الفائدتين جادَت بِه التَّجربّةُ الشيوعيَّةُ على أهلِ بلاد روسيا. والذي أخذته منهم هو: ما كانَ لابدَّ لإقامةِ نظامِ المِلكيَّة الجماعي مكانَ نظامِ الملكيَّةِ الفرديَّةِ، من أنْ يتولَّى هذا العملَ الخطيرِ نفسُ الحزبِ الذي قامَ بهذه النَّظريَّةِ – أي الحزب الشيوعي– وقد كانّ ممَّا يقتضيَه

---

[1]– أُسُسُ الاقتصاد ص 73–74.

[2]– انظر نفس المصدر ص 75–76.

[3]– نفس المصدر ص 78–79.

هذا العملِ الخطيرِ أنْ تقومَ في البلادِ سيطرةٌ مهيمنَّةٌ تقوِّضُ بكلِّ قوةِ دعائمَ نظامِ الملكيَّةِ الفَردِيَّةَ، وتُقيمُ النِّظامَ الجديدَ بأيدٍ قويَّةٍ حديديَّةٍ. فقامت هذهِ السَيطرةُ، وقيل لها "سيطرة العمال"، ولكنَّ الذي يَعرِفُه القاصي والداني أنَّه ليسَ لعمَّالِ روسيا ومزارعوها والمشتغلون في مختلفِ شُعبِ الحياةِ كلُّهم من أعضاءِ الحزبِ الشيوعيِّ، بل لعلَّه لا ينضمُّ إلى هذا الحزبِ منهم ولا (5%) خمسة في المائة فهي في ظاهرِ الأمر سيطرةُ العُمَّالِ، ولكن في الحَقيقةَ سيطرةُ الحزبِ الشيوعِيِّ على العمَّال.

ويضيف المودوديِّ: "إنَّ الحزبَ المسيطرَ في هذا النِّظامِ يستعمِلُ الصّحافةَ والإذاعةَ والسِّينَما والمدرسةَ والمطبعةَ والشؤونَ الإداريَّةَ وشئونَ البلادِ الاقتصاديّةِ والسياسيَّةِ كلِّها طبقًا لخطةٍ مرسومةٍ خاصةٍ، وذلك لإنجاحِ المَنهجِ الذي يَضَعُه لحياةِ البلادِ الشَّاملةِ. والواقعُ أنَّ هذا المنهجَ إنَّما يتوقَّفُ نَجاحُه على ألاَّ يكونُ للتفكيرِ والرأيِ والعزمِ رأسٌ في البلادِ غيرِ الرؤوسِ القليلةِ التي تَتَربَّعُ في المراكزِ، وتَضَعُ البرامجَ وترسمُ الخِطَطَ والمناهجَ، ولا يكونُ لبَقِيَّةِ مَنْ في البلادِ إلاَّ امتثالُ الأمرِ والنُّزولُ عند الحكمِ، فإنَّ الذي تَقتضَيه طبيعةُ هذا المنهجِ ألاَّ تكونَ البلادُ بِقَضِّها وقَضِيضَها معمورةً إلاَّ بالأيديَ المتنفذَةِ المُستسلِمَةِ المُنقادَةِ لمَا تَتَلَقَّى من فوقِها من الأحكامِ والأوامرِ، غيرِ المُتَرَدِّدَةِ في السمعِ والطَّاعةِ. وليسِ لمَنِ تُسوِّلُ له نفسَه في هذا النِّظامِ إبداءَ الرأيِّ المُخالفِ لرأيِ الحزبِ الغالبِ أو الاعتراضِ عليه، أو الانتقادِ لأعمالِه إلاَّ السِّجنَ أو الشَّنقَ، وأنَّه إذا نُفِيَ من البلادِ فذلكَ من حُسنِ حظِّهِ وعَطْفِ الحكومةِ على حالِه. ومن أَجلِ ذلك رأيتُ أنَّ كثيرًا من عمَّالِ الحزبِ الشيوعيِّ نفسِه وزعمائِه الذين بمساعيهِم وكفاءاتِهم رُزِقت التَّجربةُ الشيوعيَّةُ ما رُزِقَت من النَّجاحِ في روسيا قد عوقِبوا بعقوباتٍ فادحةٍ من الحبسِ أو الإعدامِ أو النَّفيِّ من البلاد. وما ذلك إلاَّ بمجردِ تَجرُّئِهم على مخالفةِ الطَّبقةِ المُمْتَلكةِ لناصيةِ الأمرِ والسُّلطةِ في البِّلادِ.

ومن أعاجيبِ الأَخلاقِ الشيوعيِّةِ أنَّ كلَّ من يُؤخَذُ بجريمةِ المخالفةِ تُوجَّهُ إليهِ أشدَّ أنواعِ الجرائِمِ، ومن كرامةِ المحاكمِ الشُّيوعيَّةِ أنَّ كلَّ من يُقَدِّمُهَ الحزبُ الشُّيوعي إليها لا يلبثُ أنْ يتلوَ عليها جدولاً مطولاً لجرائمِه طبقًا لمَا تشتملُ عليهِ دَعوَى الاتهام، ويعترفُ لا بلسانٍ مُتَلَعثِمٍ، ولكنْ بكلِّ صوتٍ جهوري، ولسانٍ منطلقٍ– أنَّه رأسُ الغادرين العاملين على هدمِ كيانِ البَّلادِ، الممالئين للأعداءِ الرأسماليين.[1] ويرى المودوديُّ أنَّ سببَ الاستبدادِ والظُّلمِ الذي يُمارِسُه الحزبُ الحاكمُ ضدَّ جماهيرِ الشَّعبِ الروسيِّ، وأنَّ الحزبَ الشيوعيِّ يخافُ على نفسِه من الثَّورةِ المُعاكسَةِ التي تقضي عليهِ وعلى سلطتِه الاستبداديَّةِ، ذلك أنَّ النِّظامَ الشيوعيِّ يُعادي الفطرةَ الإنسانيَّةَ التي غرَسَ الله تعالى فيها حُبَّ التَّمَلُّكَ وغريزةَ الميلِ إلى المَنفعةَ الذَّاتيَّةِ، وحرمانِ الفِطرةِ ممَّا فُطِرَت عليه قد يدفعُ صاحبَها إلى الثَّورةِ للحصولِ على حقوقِه التي حُرِمَ منها. ولمَّا كانَ الحزبُ الشيوعيُّ الحاكمُ في روسيا يعرفُ هذهِ الحقيقةِ قامَ

[1]– أُسُسُ الاقتصاد ص 80–83.

بعمليَّاتِ التَّطهيرِ التي شَمِلَت مئاتِ الألوفِ من المنتسبينِ للحزبِ الذين تبدو منهم رائحةُ التَّطلعِ إلى المِلكيَّةِ الفَرديَّةِ. وتنفيذًا لسياسةِ الحزبِ الإرهابيَّةِ أنشأت الحكومةُ الرَّوسيَّةُ شبكةً عريضةً من الجواسيسِ والبوليسِ السِرِّي التى تراقبُ النَّاسَ، وتحصي عليهم تحرُّكاتِهم، وتُسَجِّلُ كلماتِهم، سواءٌ كانوا في البيت أمْ المزرعةِ، وسواءٌ كانوا في المصنعِ أو المؤسَّسَةِ. وقد شمِلَت هذه الشبكةُ الجاسوسيَّةُ المرأة التي تَتَجسَّسُ على زوجِها، والولدُ الذي يَتَجَسَّسُ على والدِه، والتِّلميذُ الذي يَتجَسَّسُ على مُدرِّسِه، والمرؤوسُ الذي يَتَجَسَّسُ على رئيسِه، وبعبارةٍ أخرى أصبحَ كلُّ فردٍ في المجتمعِ الروسيِّ جاسوسًا على غيرِه، وغيرُه جاسوسًا عليه.[1] وتقومُ الشُّرطةُ الروسيَّةُ بممارسةِ الأعمالِ الإرهابيَّةِ التي يُعانِيّ منها الشَّعبُ الشَّدائدَ والنَّكباتِ، ونتركُ المجالِ للأستاذِ المودودي ليُحدِّثَنا عن بعضٍ هذه الممارساتِ: إنَّ الذي تُقومُ عليه شرطةُ روسيَّا على سبيلِ الحَيْطَةِ هو أنَّه إنَّ أَخذَ وقتِلَ مئاتِ الألوفِ من الأبرياء خطأٌ فهو خيرٌ من أَنْ ينجوَ من العقابِ أحدٌ من المجرمين فتحدثُ على يدِه الثَّورةُ المُعاكسةُ في البلادِ. فمنْ أجلِ ذلك لا يزالون على تيقظٍ دائمٍ، ويستطلعون إنْ كانَ في محلٍ أو مكتبٍ أو مؤسَّسةٍ أحدٌ يبدِيَ سخطَه وعدمَ اطمئنَانِه لإدارةِ الحكومةِ أو إدارة معملِه، فهكذا يُلقَى القبضُ بغتَةً على كلِّ من يبدو الرَّيبَ في أمرِه، فضلاً عن أنْ يأتيَ بفعلٍ من الأفعال. ثمَّ إنَّ هذا عملٌ مُطَرِدٌ، وعادةٌ جاريةٌ في البلاد، عرفَها النَّاسُ وأستأنسوا بها... فهذه هي القيمةُ الباهظةُ التي يؤديَها أهلُ روسيا الشَّيوعيَّةِ اليومَ مُقابِلِ المرونةِ اليوميَّةِ، ومرونُةِ الحكومة عندَ الطوارئ...".[2]

ويعلِّقُ المودوديُّ على سخافةِ الفكرِ الشيوعي وأَتباعِه الشيوعيين، وقلَّةِ الفِكرِ عندَ الغربين الذين قبلوا هذا الفكرَ الهَزيلَ. واستَسلَمُوا لنظريَّاتِه الباطلةِ ومبادئِه الجوفاءِ، يقولُ: "وما كان في بدء أَمرَه إلاَّ اختراعًا تولَّى كِبَرَهُ رجالٌ ممن أُوتُوا من قبلِ عقولهِم، وكانت مقدماتُه ودلائلُه ونتائُجه كلُّها في غايةٍ من السَّخافة والتَّضَعْضُعِ.[3] وما كانَ يُقبِلُ عليه ويتلقَّاهُ بالقَبولِ إلاَّ العمال الغاضبون.[4] وما كانَ قَبولُهم ذلك صادرًا عن علمٍ أو فكرٍ أو رويةٍ، بل إنَّما كانوا يلقونَهُ بالقَبولَ لأجل عواطفهمِ الثَّائرةِ الهائجةِ، ومن أعاجيبِ ما فُطِرت عليه العقليَّةُ الغربيَّةُ من الضَّعفِ وقلَّةِ الروية أنَّها مولعةٌ أشدَّ الولوعِ بالإغراب[5] والابتكارِ، ولاسِيَّما إذا كان قد بلغَ مبلغًا عظيمًا من اللَّغوِ والسَّخافةِ، وظلَّ صاحبُه يجحدُ بمسلماتٍ

---

[1]– المصدر السابق ص 83–84.

[2]– المصدر السابق ص 84–85.

[3]– التضمضيع : الضعف والهزال، انظر لسان العرب لابن منظور، مادة ضعضع.

[4]– أي العمال الناقمون على الرأسمالية التي سخرتهم عبيدًا أذلاَّءَ لصالحِ الطَّبقةِ البُرجَوازِيَّةِ المُستَغَلَّةِ.

[5]– الإغرابُ: الشيءُ الغَريبُ، جاء في مختار الصحاح للرازى تحت مادة غريب: أغرب جاء بشيءٍ غريبٍ، وأَغرَب أيضًا صار غريبًا.

عظيمةٍ كثيرةٍ، ويُبطلُها بدون توقفٍ ولا رويَّةٍ، ويرتِّبُ دعاويه ودلائله بطريقٍ علميٍ، وينشأُ فيها شيئًا كالنِّظامِ، ولقد كانت هذه الخصائصُ توجدُ في هذا المبدأِ الجَّديدِ بأَوسعِ معانيها المُمكنَةِ، فأقبلَ عليه كثيرٌ من الرِّجال الأذكياءِ من الطبقةِ الدنيا والمتوسطة، بل كثيرٌ من الرِّجال المتثعلبين من الطَّبقة البُرجوازِيَّةِ نفسِها، وبدأوا يؤلفونَ الكتبَ ويُصدرونَ المجلاَّتِ والجرائدِ لشرحِ مبدئهِم الجديدِ وتفسيرهِ والدعوةِ إليه، وانتظمت في جميعِ أقطارِ العالمِ أحزابٌ تحامي عن مختلفِ النَّظريَّاتِ الاشتراكيَّةِ، حتَّى أخذَ عددٌ من أبنائِهم يَحسَبُ أنَّه من الممكنِ أنْ يقومَ على أساسِ هذه النَّظريَّاتِ نظامٌ الاجتماع والاقتصاد.[1]

وأخيرًا يَردُّ المودوديُّ على سَخافاتِ المدافعين عن الشُيوعيَّةِ الذين يحتجُّونَ لصحَّةِ فكرِها ومبادئِها بما وصلت إليه روسيا من التَّقدمِ في مجالِ العلمِ والصناعةِ والتكنولوجيا في ظلِّ النِّظامِ الشُيوعي، حيثُ يُقارَنُ بينَ التَّقدمِ والرُقِيِّ الذي وصلت إليه روسيا، وبين ما وصلت إليه من التَّقدمِ والرقيِّ غيرُها من الدُّولِ كأمريكا وألمانيا واليابان، فهذهِ الدُّول بلَغت من التَّقدمِ والرُقِيِّ في المجالِ العلميِّ والتكنولوجيِّ مبلَغًا عظيمًا، وقد تَفوقُ إحدَاها روسيا الشُيوعيَّةُ في هذا المجالِ، ومع ذلكَ لا نُسلِّمُ بصحةِ المبادئِ التي يقومُ عليها النِّظامُ السِياسِيُّ والاقتصاديُّ والاجتماعيُّ السائدُ فيها، إذ ربَّمَا يَرجِعُ التَّقدمُ لأسبابٍ أُخرى، مثلُ الصِّفاتِ الفَردِيَّةِ التي يتمتَّعُ بها القادةُ والحكَّامُ، بالإضافةِ إلى كفاءةِ مُسَاعديهم وأَتباعِهم.[2]

آثارُ الحضارةِ المُعاصِرةِ في العالم الإسلامِي:

لقد وَقَعَتْ مُعظمُ بلدانِ العالمِ الإسلامي في منتصفِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ تحتَ سيطرةِ الاستعمارِ الأوربِى، والبلادُ التي لم تدخلْ تحتَ سيطرةِ هذا الاستعمارِ لمْ تَسلمْ من الخضوعِ لسلطانِه وبأْسهِ، ونتيجةً للسَّيطرةِ الاستعماريَّةِ الأوربيَّةِ على العالم الإسلامي وقعَ المسلمون تحتَ تأثيرِ الحضارةِ الغربيَّةِ التي صاحبت وجودَ المُستعمرِ الدَّخيلِ الذي استغلَّ سلطانَه ونفوذَه لإخراجِ المسلمين من عبوديَّتِهم لله تعالى، وإبعادِهم عن دينِهم الحقِّ، وبالفعلِ تَأَثَّرَ المسلمون بالأوربِّيِّنَ في مظاهرِ حياتِهم الاجتماعيَّةِ، فقلَّدوهُم في الزِّيِّ واللِباسِ، ومظاهرِ الاجتماعِ، وفي آدابِ المجالسِ، وفي الحَركَةِ والمَشي والنُطقِ والكلامِ، وعَمِلَ حُكامُ المسلمين وأعوانُهم من المستغربين على صَبغِ مجتمعاتِهم بالصِّبغةِ الأوربيَّةِ. وقبلَ كثيرٌ منهم في نشوةِ التَّجدُّدِ والإنبهارِ بالحضارةِ الماديَّةِ والإلحادِ دونَ حيطةٍ وحذرٍ أو شعورٍ بالعواقِبِ.

ولقد أَصبحُ كثيرٌ من المسلمين يؤمنون بضرورةِ اتِّباعِ الغربِ للوصول إلى الرُقِيِّ والتَمدِيُن، فرَّحبوا بالخمرِ والقمارِ واليانصيبِ والرِّبَا وسباقِ الخيل، وغير ذلك من ثمراتِ الحضارةِ المعاصرةِ، واستسلموا لمَا أفرزتهُ هذه الحضارةُ من نظريَّاتٍ ومبادئ فى الأخلاقِ والآدابِ والاجتماعِ والسِّياسَةِ، والاقتصادِ والقانونِ، لقد استَسلَموا لذلكَ كلِّه دونَ نقدٍ أو

---

[1]– أسس الاقتصاد للمودودي ص 67– 68.

[2]– المصدر السابق ص 69– 70.

تَمحيصٍ لمعرفةِ الضارِ من النافعِ من هذه النَّظريَّاتِ والمبادئ. فغدَا المسلمُ يحتقرُ دينَه، وينفرُ من اتِّباعِ شريعةِ الله تعالى، ويزدري من تاريخه الإسلامي، وأخذ المثقفون من المسلمين يُقلِّدُون الغربَ في أرائه وأفكاره التي أشاعَها حولَ أحكامِ الكتابِ والسُّنةِ، فمثلاً أعرضَ المسلمون عن الجهادِ في سبيلِ الله حتَّى لا يرمَوْنَ بالهمجيَّةِ والإرهابِ، ولمَّا هاجمَ المستشرقون أحكامَ الشَّريعةِ الإسلامية التى تَتَعلَّقُ بالزواج والطلاق والميراث والرِّقِّ، نظرَ كثيرٌ من المُثَقَّفين المسلمين إلى هذهِ الأمورِ نفسَ نظرةِ الغرب العدَائِيَّةِ. ومع الأسفِ قامَ بعضُ المسلمين من العلماءِ والمشايخِ بإدخالِ التَّعديلِ والإصلاحِ –حسب زعمهم– على هذه الأمورِ وغيرِها لتُسَايرَ الحضارةَ المعاصرةَ، وادَّعى غيرُهم أنَّ الإسلامَ لا يمانعُ الفنونَ الجميلةَ كالرَّقصِ والموسيقي، والتَّصويرِ والنَّحتِ.[1]

واذكرُ الآن بشيءٍ من الإيجاز عن آثارِ الحضارةِ الغربيَّةِ المعاصرةِ في العالم الإسلامي، وذلك في النَّواحِي الاجتماعيَّةِ والأَخلاَقِيَّةِ، والسياسِيَّةِ والاقتصادِيَّةِ، والثَّقافِيَّةِ، وفي الحكمِ والتُّشريعِ.

أولاً: آثارُ الحضارةِ في النَّواحي الاجتماعيَّةِ والخُلُقِيَّةِ:

لقدْ أَثَّرت النَّظريَّاتُ الغربيَّةُ التي تَتَعلق بحريةِ المرأةِ وتعليمها ومساواتها بالرَّجلِ في عالمنا الإسلامي فظهَرَت في نهاية القرن التاسعِ عشر الدَّعوةُ التي تُنادي بتحريرِ المرأةِ وتمكينِها من المشاركةِ في الوظائفِ والأعمالِ العامَّةِ. وقد أَخذَ أصحابُها يظهرونَها على أنَّها دعوةٌ علميَّةٌ عمليَّةٌ، والحقيقةُ أنَّها دعوةٌ متأثرةٌ بالحضارةِ الغربيَّةِ، التي أَخرجت المرأةَ من حجابِها ومن بيتِها، حتَّى تَفَكَّكَت الأسرةُ، وانتشرت المفاسدُ الاجتماعيةُ والخُلقيَّةُ المتعددةٌ. ومن الأدلة والبراهين على أنَّ دعوةَ تحريرِ المرأةِ التي ظهرت في عالمنا الإسلامي كانت متأثرةً بالحضارةِ الغربيَّةِ أنَّها استندت فى دَعوَاها إلى نفسِ الأدلَّةِ التي تلقَّاها أصحابُها من الغربِ مباشرةً، وأنَّ أقوالَ دُعاتِها تشبهُ إلى حدٍ بعيدٍ أقوالَ تلكَ الحضارةِ التي يَدينونَ لها بالوَلاءِ. فمثلاً قالوا: إنَّ المرأةَ هي نصفُ المجتمعِ، وأنَّ المجتمعَ لنْ يَتقدمَ أو يَتمدَّنَ ما دامَ هذا النصفُ حبيسَ البيتِ، بعيدًا عن المساهمةِ في تَقَدُمِ المجتمعِ ورُقيِّهِ، وأنَّ النِّساءّ لديهُنَّ القدرةَ على مزاولِة أوجهِ النَّشاطِ الفكري والعملي، وأنَّ في خروجِهنَّ للعملِ أداءٌ لوظيفتِهِنَّ الفِطريَّةِ، وفيه استقلالٌ لأمورِهِنَّ الماليَّةِ، وحتَّى لا تنكشفَ حقيقةَ أهدافَ هذهِ الدَّعوةِ التي تَتَمثلُ في حملِ المرأةِ المُسلمةِ على إقتناء أثارِ المرأةِ الغربيَّةِ واتباعِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ السَّائدةِ في بلادِ الغربِ المادي، قام هؤلاءِ الدُّعاةِ بتدعيمِ مطالبهِم بالاستدلال بالنُّصوصِ الشَّرعيَّةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ. وادعو أنَّهم دعاةُ خيرِ وإصلاحٍ، يهدفون إلى سعادةِ المجتمعِ الإسلامي ولحوقِه بالرَّكبِ الحضاري، وقد فات هؤلاء أنَّ هناك بونًا شاسعًا بين الإسلامِ والحضارةِ

[1]– انظر الحجاب ص 38–41.

الغربيَّةِ في الأُسسِ والتُصوراتِ، وفي المقاصدِ العامَّةِ ومبادئِ تنظيمِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ"، ولعلَّ الكاتبَ المصريُّ قاسم أمين،[1] على رأسِ دُعاةِ تحريرِ المرأةِ في العالم العربي، فلقد ألَّف لهذا الغرضِ كتابيْنِ، الأوَّل: تحريرُ المرأة، وطُبِعَ فى مصرَ عام 1899م، والثاني: المرأةُ الجديدةُ، وطُبِعَ في مصرِ أيضًا عام 1900م. وأثارَ ظهورُ الكتابيْن ضجةً كبيرةً في الأوساطِ الإسلاميَّةِ، وقد ضمَّنَ قاسمُ أمين كتابِيْهِ آراءَه الصَّريحةَ في الدَّعوةِ إلى السفورِ وفسادِ الحِجابِ، ومنعِ تَعدُّدِ الزَّوجات، والاكتفاءِ بزوجةٍ واحدةٍ، كما أَساءَ إلى بعضِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، فطالب مثلاً أنْ يكونَ الطَّلاقُ أمامَ القاضي، وفي وثيقةٍ رسميَّةٍ بحضورِ شاهِدَيْن.[2]

ويرى المودوديُّ أنَّ الحضارةَ الغربيةَ التي انتقلت إلى العالمِ الإسلاميِّ بفضلِ الاستعمارِ الغربي قد جاءت بثلاثِة سيِّئَاتٍ، أولُها: فتحُ باب العمل السياسي والاجتماعي أمامَ النِّساء، وثانيها: إقامةُ الجمعيَّات والمؤسسات التي لا مندوحة فيها من الاختلاط بين الرَّجالِ والنِّساء. وثالثها: عدمُ تطبيقِ أحكامِ الشَّريعةَ الإسلامية، حتَّى أصبحَ معَها ارتكابُ الفواحشِ والجهرُ بها، لا يعدُّ من الجرائمِ في أغلبِ الأحيان.[3]

ويصور لنا المودوديُّ آثارَ الحضارةِ المعاصرةِ في حياة المسلمين الاجتماعية والأخلاقية، وخاصةً الذين وقعوا تحتَ سيطرةِ أصحابها المستعمرين، فيقول: "فالذين قد عزموا اتِّباعَ هذا الطَّريقِ في حياتهم بقلبٍ مطمئنٍ مقتنعٍ، قد اكتمل الانقلاب – أو وكادَ– في حياتِهم الخُلقيَّةِ والاجتماعيَّةِ فعادَت نساؤُهم يخرجنَّ من بيوتِهِنَّ في ملابسَ شفافةٍ عاريةٍ، يُخيَّلُ إلى الناظرِ كأنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ ممثلةٌ من مُمَثِّلاتِ (هوليود)، وأصبحَ يَرى فيهنَّ الجَسارةَ والصفاقةَ. بل يتبيَّنُ المرءُ من ملابسِهنَّ الفاضحةَ وألوانَهنَّ البَّراقةَ، وعنايتَهنَّ بالتَّزيُنِ وحركاتِهنَّ من التَّثَنِّي والتَّغَنُّجِ أنَّه لا مطمحَ أمامَ أَعيُنُهنَّ إلاَّ أنْ يَكُنَّ مغنطيسًا جنسيًا يجذُبنَ الرَّجالَ إليهنَّ جذبًا، وقدْ قلَّ الحياءُ فيهنَّ إلى حدٍّ أنْ عُدْنَ لا يستحِينَ مع الغسلِ معَ الرِّجالِ شبهَ عارياتٍ، بل من عرضِ أَنفسُهِنَّ في تلك الحالةِ لتُؤخذَ صورُهُنَّ وتُنشرُ في المجلاَّتِ. والحياءُ لمْ يَعُدْ له وجهٌ عندهنَّ حقًا. إذ أنَّ أجزاءَ الجسدِ الإنساني بمنزلةٍ سواءٌ في التَّصوراتِ الخُلُقيَّةِ الجديدةِ. فإذا جازَ للمرأةِ أنْ تُبرزَ من جسمِها الكفَّ وأَخمصَ القَدَمِ، فلا ضيرَ عليها

---

[1]– قاسم أمين:(1908–1980م) قاضى وكاتب مصرى، من أضل كردي، تعلم في الأزهر، ودرس القانون، في فرنسا، عملي في النيابة والقضاء، وكان وثيق الصلة بالشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعرف بكتاباته التي يدعو فيها المراة المصرية الى اقتناء المراة الأومية ، فدعا الى السفور، والمشاركة في الحياة العامة كالرجل، والى تقييد الطلاق ، وتقييد تمدد الزوجات، اهم مؤلفاته : المراة الجديدة تحرير المرأة، وفيهما نشر ما يدعو الله. انظر الأعلام: الزركلى 19/6، معجم المؤلفين عمر ضا كحاله 14/8.

[2]– انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين 292/1–311.

[3]– انظر الحجاب ص 129.

في الكشفِ عن مغبنِ[1] فخذِها، وحلمَةِ ثديِها. ومتعةُ الحياةِ ولذَّتُها التي يُعبَّرُ عن جملةِ مظاهرِها باسمِ الفنِّ هي عندَ هؤلاءَ القومِ أَجَلُّ وأَسمَى من كلِّ قيدٍ خُلُقِيٍ، بل هيَ في نفسَها مقياسٌ للأخلاقِ. ومن ثمَّ ترَى الآباءَ منهم والأخوانَ يكادُ أحدُهم يخرجُ من إهابِه فخرًا وسرورًا إذا شاهدَ ابنتَه أو أُختَه الآنسة تعجبُ مئاتَ الحضورِ والسامعينِ المتشوفينِ ببراعةِ غنائِها ورقصِها، وتمثيلِها الغرامَ، وتنالُ رضُاهم وتحسسينَهم، وأنَّ النَّجاحَ المادِيَّ الذي يعدونَهُ غايةَ الحياةِ ومقصودِها أرجحُ وأغلى في رأيهم من كلِّ ما يمكنُ أنْ يُنَالَ هذا ببذلِهِ، فالفتاة التي تُؤهِّلَ نفسَها للظَّفرِ بهذا المقصودِ –النجاح المادي– لنيلِ الحَظوةِ لدى المجتمع، وإن فقدت عفَّتَها في هذا السبيل، فإنَّها لمْ تفقدْ شيئًا. بل حازَت كلَّ شيءٍ. ومن ذلك لا يكادُ هؤلاءِ يفقهونَ وجهَ الطَّعنِ على تَعلُّمِ فتاةٍ من الفتياتِ في المدرسة أو الكلية، أو على ذهابِها منفردةً في سنِّ الشَّبابِ إلى أوروبا لتحصيلِ العلم[2] وبتأثيرِ الحضارةِ الغربيَّةِ ظهرَتْ في العالمِ الإسلامي كثيرٌ من الأفكارِ الهزيلة التي تُخالفُ أَحكامَ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، ومنها: الفكرةُ القائلةُ بوجوبِ انتزاعِ حقِّ الطَّلاق من الرُّجلِ، وجعلِه بيدِ المحكمة. ففي تونس صدرَ القانونُ التُّونسيُّ الذي ينصُّ على عدمِ وقوعِ الطَّلاق إلا بواسطةِ المحكمة. وأنَّ المحكمة لا تملكُ إيقاعه إلاَّ إذا كان الزوجان موافقيْنِ عليه، وطالبَ القانونُ المحكمةَ بتغريمِ الطرف الذي يطلبُه غرامةً ماليَّةً طائلةً.[3]

والملاحظُ أنَّ القانونَ التونسي للأحوال الشخصيَّةِ كان متأثرًا بالقوانينِ الغربيَّةِ التي تضَمنَّت نصوصًا تَتَعلقُ بأحكامِ الزواجِ والطَّلاقِ، وهى نفسُ النُّصوصُ التي اقتبسها القانونُ التونسيُّ منه. ومعلومٌ إنَّ الأخذَ بتلك الفكرة (وقوع الطلاق أمام المحكمة) تُؤدِّي إلى عواقبَ خطيرةٍ منها: فضحُ أسرارِ الحياة العائليَّةِ التي أمرَ الله تعالى أنْ تكونَ وقفا على الرَّجلِ وزوجتِه، قال تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) النساء:34. يقول الدكتور الشيخ يوسف القرضاوى معقبًا على هذه الآية الكريمة: "ومن جملة الغيبِ الذي ينبغي أنْ يُحفظَ ما كان بينَ الزَّوجةَ وزوجِها من علاقةٍ، فلا يَصِحَّ أنْ تكون حديثًا في المجالسِ أو سمرًا في النَّدواتِ مع الأصدقاء أو الصَّدِيقاتِ، وفي

---

[1]– المغبن: باطن الفخذ عند الحوالب، وقال ثعلب كل ما ثنيت عليه فخذك فهو مغبن. انظر لسان العرب، مادة غبن.

[2]– انظر الحجاب ص 129–130.

[3]– انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص 161.

الحديث الشريفِ: إنَّ من شرِّ النَّاسِ منزلةً عند الله يومَ القيامةَ الرجلُّ يُفضِي إلى المرأةِ وتُفضِي إليه ثمَّ يَنشُرُ سِرَّها"[1].[2]

ولا ريبَ أنَّ الطلاقَ عن طريقِ المحكمةِ يؤدي إلى فضحِ الأسرارِ العائليَّةِ أمامَ القاضي والمحامين وغيرِهم من الجيران والأقارب والأصدقاء، ومن ثمَّ تُسرَّبُ هذه الأسرارُ إلى الصُّحفِ والمجلاَّتِ التي تَهُمُّها مثلُ هذه الأمورِ، لتجعلَ منها حديثًا تلُوكُه ألسنةُ النَّاسِ في كلِّ مكانٍ.[3]

ولقد ظهرت في عالمنا الإسلاميِّ أيضا فكرةُ منعِ تعدُّدِ الزَّوجات، وهذه الفكرةُ من بناتِ أفكارِ الغرب، الذي أباح للرَّجلِ أنْ يَتَّخذَّ الخليلات والعشيقات مع وجودِ زوجتهِ الشَّرعيَّةِ، في الوقت الذي حتم عليه أنْ يقترنَ بزوجةٍ أُخرى بالطريقِ الشَّرعيِّ الحلال. إنَّ الأخذَ بهذه الفكرةَ يَعملُ على تقويضِ الكيانِ الأُسري، ومن ثمَّ إلى تقليدِ المجتمع الغربي في حياتِه الاجتماعية الهابطة، فيروجُ الزِّنَا بين المسلمين، وتكثرُ الخليلاتُ والعشيقاتُ.[4] ولقد أخذت بهذه الفكرة – مع الأسف الشديد– وأَصدرتها في قانونٍ مُلزمٍ للشَّعبِ حكوماتٌ إسلاميَّةٌ تربَى قادتُها في أحضانِ الحضارةِ الغربيَّة، ففي تونس صدرَ قانونٌ يمنعُ التَّعددَ، ويفرضَ العقوبةَ على من يتزوَّجُ بأكثَرَ من واحدةٍ. ورحَّبَت بهذا القانونِ الأوساطُ الاستعماريَّةُ الغربيَّةُ، والأوساطُ النِسَائيَّةُ المُتحرِّرَةُ، واعتبرته خطوةً على طريقِ التَّقدمِ، وتحريرِ المرأةِ التُونُسِيَّةِ.[5]

وفي باكستان أصدرَ الرَّئيسُ أيوب خان عام 1971م، قانونًا للأحوالِ الشَّخصيَّةِ يمنعُ بموجبِه الرجلَ من الزَّواجِ بامرأةٍ أُخرى، إلاَّ بموافقةِ الزَوجةِ الأولي، بعد أن يعرضَ أَمرُه على مجلسٍ عائلي، وبعد أنْ يدفعَ مبلغًا ماليًا كبيرًا. وقد قَوبِلَ القانونُ الباكستانيُّ هذا بالاستحسانِ من قبلِ الأوساطِ الاستعماريَّةِ والمؤسساتِ التَّبشيريَّةِ، بينما قُوبِلَ بالمعارضة الشَّديدةِ من قبل العلماءِ المسلمين داخلَ باكستان وخارَجها.[6] وفي مصر طالبَ بعضُ أتباعِ الحضارةِ الغربيَّةِ بمنعِ التَعدُّدِ، وطالب البعض الآخر بوضعِ القيودِ عليه وذلك عام 1971م، ولقد عارضَ هذا

---

[1]– الحديث رواه مسلم رقم 1437 في كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سرِّ المرأة، وأبو داود رقم 4870 في كتاب الأدب، باب في نقل الحديث.

[2]– الحلال والحرام في الإسلام: د. يوسف القرضاوي ص 190–191.

[3]– انظر المرأة بين الفقه والقانون: د. مصطفى السباعي ص 128، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: المودودي ص 259–260.

[4]– انظر المصدر السابق ص 260.

[5]– انظر الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص 158–159، 161، المرأة بين الفقه والقانون ص 109.

[6]– انظر المصدر السابق ص 110، ابو الأعلى المودودي صفحات من حياته وجهاده ص 70، الإمام أبو الأعلى المودودي للحامدى ص 67.

القانونَ وتَصدَّى له علماءُ الإسلامِ في مصرَ، وعلى رأسِهم العلاَّمةُ الشيخُ محمدُ أبو زهرة رحمه الله.

وتقليدًا للمرأةِ الغربيَّةِ خرَجت المرأةُ المسلمةُ للعملِ خارجَ البيت، واقتحمت دائرةَ أعمالَ الرَّجلِ ونشاطَه مخالفةً لأُنوثتِها وفطرتِها التي لا تناسبُ مثلَ هذه الأعمال. وارتدَت كثيرٌ من نساءِ المسلمين الملابسَ الأوربيَّةَ الفاضحةَ وخرجنَ من بيوتِهنَّ، وقد خَلَعْنَ رداءَ الحياءِ معطرات متزينات، يغشينَ الأنديةَ والأسواقَ، ويَجُبْنَ الشَّوارعَ، حيثُ يتعرضنَّ للرجالِ كاسياتٍ عارياتٍ، وقد كشفت إحدَاهُنَّ عن ذراعيهَا ونحرَها وساقيهَا، وشيئًا من صدرِها، وأخذت النِّساءُ المسلماتُ يُقلِّدنَ المرأةَ الأوربيَّةَ في ذهابِهِنَّ إلى شواطىءِ البِّحارِ ومسابحِ الملاهي والفنادق في صورةٍ بعيدةٍ عن أنوثتِهِنَّ اللاتي فُطرنَ عليها، وأصبحنَّ يشتركنَ في مهرجاناتَ الشَّبابِ والشابات، وفي الألعابِ الرياضيَّةِ المُختلَطةِ، وفي البرامجِ التَّمثيليَّةَ، كالمسرحِ والسِّينَما والمُسلسَلاتَ الإذاعيَّة والتلفزيونيَّةِ، واشتركنَ في حفلاتِ الرَّقصِ والموسيقى، واشتركنَ في مسابقاتِ انتخابِ الجَّمَالِ، حيثُ تُهانُ المرأةَ بصورةٍ مُفزِعةِ، وتصبحُ إحداهنَّ ألعوبةً بيدِ الرِّجالِ الذينَ يَتَصرَّفونَ في جسدِها كيفُما يشاءَون، وأخذت فتياتُ المسلمين يَعملنَّ في خدمةِ رُكَّابِ الطائراتِ والتَّرويحِ عن نفوسهم، وفي الفنادق والأماكنِ التي يرتادُها الزَّوارُ والسُّيَّاحُ. وأَقبلَت المرأةُ المُسلِمةُ على مشاركةِ الرَّجلِ في أكلِ الرِّبَا، واقترافِ الزِّنَا، وشربِ السَّجائرِ والمُخدراتِ والخُمورِ.[1]

وعن حالةِ المرأةِ العربيَّةِ التي قلَّدَت المرأةَ الأوربيَّة في حياتِها الاجتماعية، يقول المودوديُّ: "إنَّى كنتُ أشعرُ بواسطةِ الجَّرائدِ والمَجلاَّتِ التي كانت تَرِدُ علينا من مصرَ وغيرِها من البلادِ العربيَّةِ بأنَّ المرأةَ في البلاد العربيَّةِ قد بلغت من اعتدائِها على الحدودِ الشَّرعيَّةِ، وانسياقِها وراءَ تيَّارِ الحضارةِ الجديدةِ درجةً رُبَّما لم تبلغْها المرأةُ حتَّى في بلادِنا نحنُ، فكنتُ لكلِّ ذلك أجدُ في نفسِي من القلقِ والاضطرابِ ما قد طَالمَا أقضَّ عليَّ مضجعي، وأجرى الدموعَ من عينيِ، ثمَّ إنَّه لمَا قُدِّرَ ليَ قبلَ عامين ونصف زيارةُ بعضِ البلادِ العربيةِ".[2] وهناك شاهدت بعينِى ما بلغه حقا تبذُلُّ المرأةُ العربيَّةُ المسلمةُ، وتبجُّحَها بالعُريِ والفتنةِ، وشدةِ ولوعها باقتفاء آثارِ أُختِها الغَربيَّةِ، ازدَدْتُ قلقًا واضطرابًا أكثرُ من ذي قبل. ويضيفُ قائلاً: "وإنِّي والله كثيرًا ما أُسائلُ نفسِي: أنَّ إخوانَنَا العربَ الذين قد شَرَّفَهم الله تعالى ببعثةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَم فيهم ومنهم، والذين لغتُهم لغةُ القرآنِ والسُّنَّةِ، والذين

---

[1]– انظر الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: المودودي ص 261. الحجاب ص 5–7، واجب الشباب المسلم اليوم ص 13.

[2]– زارَ المودوديُّ فى عام 1956م سوريا ولبنان والبحرين والأردن، وفي عام 1959م زار مصرَ وبلاداً عربيةً أخرى. الحجاب ص 50.

لا يعوقُهُم شيءٌ،[1] عنِ معرفةِ أحكامِ الله ورسولهِ في كلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِهم إذا شَاءوا، ماذا عسَاهم يؤولون بِه رواجَ الملابسِ الإفرنجيَّةِ البحتةَ في نسائِهم، وتدَرَجهُنَّ في الأسواقِ والأنديةِ والمجامِع، بلْ وسواحلِ البِحارِ ومسابح الملاهي كاسياتٍ عارياتٍ.[2]

ومما يوضِّحُ أثرَ الحضارة الغربيَّةِ في قول الحكام المتأثرينَ بها ما نشرته مجلةُ العربي التي تصدر في الكويت، وذلك في استطلاعٍ مصورٍ عن تونس، حيث ظهرت في هذا الاستطلاع صورٌ للشَّوارعِ والميادينِ التونسيَّةِ وقد بدت لوحتان عندَ كلِّ ميدانٍ، اللوحةُ الأولى تُمَثِّلُ أسرةً مُحافظةُ ترتدي الملابسَ المُحتشمةَ وعليها إشارة (×)، واللوحةُ الثَّانيةُ تُمَثِّلُ أُسرةً متفرنجةً ترتدي الملابسَ الكاسيةَ العاريةَ، ومكتوبٌ تحتَها كونِي مثلَ هؤلاء.[3]

ولقد وفدت إلى عالمنا الإسلامي عدوى اشتغالِ المرأةِ بالسياسةِ، فنادى بعضُ أتباعِ الحضارةِ الغربيَّةِ بإعطاءِ المرأةِ المُسلمةِ حقوقًا سياسيَّةً كالرَّجُلِ، ونجحت مطالبُ هؤلاء المستغربين إلى حدٍ بعيدٍ، فحصُلت المرأةُ في كثيرٍ من ديارِ الإسلام على حقِّ الانتخابِ وحقِّ التَّرشيحِ للنيابة في المجالسِ البرلمانية، بل دَخلَتْ المرأةُ السلمةُ مجلسَ الوزراءِ، وشاركتْ الرِّجالَ المسؤوليَّةَ في تنفيذِ سياسةِ الحكومةِ. ويُعلِّقُ الدكتورُ مصطفى السباعِيُّ على حصولِ المرأةِ على حقِّ الانتخابِ وحقِّ التَّرشيحِ للمجالسِ البرلمانيَّةِ في سوريا، وغيرها من الدُّولِ العربيَّةِ، فيقول: "وأُريدُ أنْ أُسجِّلَ هنا للتَّاريخِ كلمةً، أنَّ هذين الحَقَينِ لم تنلهُمَا المرأةُ بإرادةِ الشَّعبِ الحُرَّةِ، وإنَّمَا نالتهُمَا في غيبةِ الحياةِ النيابيَّةِ وقيامِ الانقلابات العسكرية، أو الحكمِ الفَردِيِّ المُستَبِد.[4]

ولما بدأت في الغربِ الدُّعوةُ إلى تحديدِ النَّسلِ –كنتيجةٍ للتَّقدُمِ الصِناعي والنظامُ الرأسماليُّ والحضارةُ الماديَّةُ السائدةُ هناك– نشط الإستعمار الغربي في نقل هذه الدعوة إلى العالم الإسلامي، وبالفعلِ رحبَّ بها المتأثرون بالحضارة الغربية والسائرون في رَكْبِها، واقتنعُ بها بعضُ حكامِ المسلمين، ورَوَّجوا لها بين شعوبِهم، وأُنشت كثيرٌ في ديارِ الإسلام الجمعيَّاتُ والمؤسساتُ التي أُسندَ إليها مهمَةَ تزويدِ النَّاسِ رجالاً ونساءً بالتَّعليماتِ

---

[1]– إن ممَّا يعوقُ المرأةَ المسلمةَ في الالتزام بحدود الله وإرتداءِ الحجاب الشرعى، هو تَسلُّطُ الحكامُ الفجرةُ الذين يدينون للغرب الصليبي وللشرق الشيوعي بالولاء.. ففي سوريا كلُّنا يعرفُ ماذا فعل حكامها في الآونة الأخيرة (في فترة السبعينات) بالمرأة المسلمة، حيث أعدَّوا العصاباتِ المسلَّحةِ التي تنزعُ الحجابُ عن المرأة المسلمة في شوارع دمشق وجامعاتها، وفي مصر صدرت القوانين التي تمنعُ الشباب المسلم من دخولِ حرم الجامعة، إذا كان ملتزمًا بالإسلام في مظهره وملبسه، وفي تونس يُطارد الشبابُ المسلمُ الملتزمُ بتعاليم دينه. والمحافظ على حدود شريعته. ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

[2]– المصدر السابق ص 6.

[3]– انظر العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة سفر الحوالى ص 643.

[4]– المرأة بين الفقه والقانون ص 154.

والتَّوجيهاتِ الفنيَّةَ اللازمةَ للحدِّ من زيادةِ أفرادِ أُسرِهم. ولقد لاَقت– في غيبة النظامِ الإسلامي والالتزامِ بشريعةِ الله– هذه الدعوةُ قبولاً لدَى كثيرٍ من أَبناءِ المسلمينِ، فأصبحنَا نرَى كثيرًا من الأُسرِ المسلمةِ تقتصرُ على طفلٍ أو طفلين، ولقد اتضّحَّ أنَّ الغربَ الصَّليبي الرأسمالي قد دفعَ أتبَاعَه من أبناءِ المسلمين لنشرِ دعوةِ تحديدِ النَّسلِ لهدفٍ استسماريٍ خسيسٍ، وهو تَوَجُّسُ الخطرَّ السياسي من تزايد السكان في آسيا والعالم الإسلامي. جاء في مجلة "تايم" الأمريكية في عددِها الصادرِ في الحادي عشر من يناير عام 1961م، ما يلى: "إنَّ هذيان أمريكا وكلُّ ما تبذله من النَّصائحِ والمواعظِ عن مشكلة السُّكانِ إنَّما هو نتيجةٌ – إلى حدٍ كبيرٍ – لشعورِها بتلكَ النَّتائجِ والمؤثِّراتِ السِّياسِيَّةَ المتوقعةِ على أساسِ تغيَّرِ الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وخاصةً على أساسِ زيادةِ السُّكانِ في هذه المناطقِ، بحيثُ يُصبحونُ أَغلبيَّةً في العالمِ.[1]

وحولَ هذا المعنَى يقول الكاتبُ "ميك كارل":" إنَّ أهلَ الشرقِ سوف لا يلبثون إلاَّ قليلاً حتَّى يَطَّلعوا على حقيقةِ هذأ الدَّجلِ، ثمَّ لا يغتفرونَه لأهلِ الغربِ لأنَّه استعمارُ من نوعٍ جديدٍ يَهدِفُ إلى دفعِ الأُممِ غيرِ المتقدِّمةِ، ولاسيما الأممُ السوداءُ إلى مزيدٍ من الذلَّ والخسفِ، حتَّى تتمكنَ الأمُّ البيضاءُ من الاحتفاظِ بسيادتِها.[2] وقد تَنبَّه الدكتورُ محمدُ إقبال لخطرِ دعوةِ تحديدِ النَّسلِ، وهدفِ الغربِ من نشرِها في عالمنا الإسلام، يقولُ رحمهُ الله تعالى: "هناكُ سيلُ عَرِمٍ من الكتب والوسائل الأخرى قد انجزت في بلادنا لدعوة الناس إلى اتِّبَاعَ خطةِ منعِ الحملِ وتشويقهم إلى قَبولِ حركتها، على حين أنَّ أهلَ الغربِ في بلادِهم أَنفسِهم يتابعون الجهودَ الفنيَّةَ لرفعِ نسبةِ المواليدِ وزيادةِ عددِ السُّكان. ومن أهمِّ أَسبابِ هذه الحركةِ عندي أنَّ عددَ سكانِ أوروبا في تدهورٍ شديدٍ، وتناقصٍ مطردٍ بناءً على الظَّروفِ التي ما خلَقتهَا[3] أُوروبا إلاَّ لنفسِها، وقد استعصى عليها اليومَ أن تُوجدَ لها حلاً مرضيًا، وإنَّ عددَ السُّكانِ في بلادِ الشَّرقِ – على العكسِ منْ هذا– في زيادةٍ مطردةٍ، فهذا ما تَرَى فيه أُوروبا خطرًا مخيفًا على كيانِها السِّياسِي.[4]

ومن آثارِ الحضارةِ الغَربيَّةَ في العالم الإسلامي نسبةُ المرأةِ بعدَ الزَّواجِ إلى زوجِها، وفي ذلكَ مخالفةُ للشَّريعِ الإسلامي الذي يجعلُ للمرأةِ شخصيَّتَها المُستَقلَّةِ، فيبقَى نسبُها لأَبِيها.[5]

---

[1]– نقلاً عن حركة تحديد النَّسلِ، من بحثٍ للأستاذ خورشيد أحمد بعنوان: استعراض عملي لحركة تحديد النسل ص 183.

[2]– نقلاً عن المصدر السابق ص 184.

[3]– الصوابُ أن يقال أوجدتها بدلاً من خلقتها.

[4]– حركة تحديد النَّسلِ، من بحثٍ للأستاذ خورشيد أحمد بعنوان: استعراض عملي لحركةِ تحديدِ النَّسلِ ص 185.

[5]– انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، هامش 2/ 250.

ولقدْ تركَ الاستعمارُ الغربيُ في البلاد الإسلاميَّةِ التي وقعت تحتَ سيطرتِه ثمَّ رحلَ عنهَا بعد ذلك حضارتَه وأخلاقَه المَادِيَّةَ التي تَمَسَّكُ بها دُعاةِ التَّقليدَ الغربيِ من المُثقفينَ والحكامِ، وأخذوا يروِّجُونَها بينَ شُعوبِهم، وبصورةٍ بشعةٍ أكثرَ ممَّا كان يفعلُه الاستعمارُ الغربيُّ نفسُه،[1] ومن هذهِ الأخلاقِ الغربيَّةِ المادِيَّةِ النَّفعيةِ وطلبِ اللَّذةِ، وعدمِ التَّقيدِ بالهدايةِ، وكراهيةِ الموتِ، والحرصِ على الدُنيا وأعراضِها الزَّائلةِ، والعيشِ في الحياةِ بدونِ غايةٍ ساميةٍ، أو هدفٍ نبيلٍ يَطمحُ إليه ويَرجى تحقيقَه ويكافحُ في سبيلِه. وقد تأَثَّرَ السياسيون من الحزبيينِ والحكامِ المسلمينِ بالرَّذائلِ التى يعتبرُها الغربُ الصَّليبيُّ أخلاقًا وفضائلً، مثلُ الكذبِ والمكرِ والخديعةِ ونقض العهدِ، والأَثَرةِ والمؤامرةِ والتَّخويفِ، والأطماعِ ومعاملةِ الغيرِ على أساسٍ من التَّفرقةِ العُنصُريَّةِ والاحتقارِ المُشِين.[2] ومالَ كثيرٌ من أبناءِ المسلمينِ خاصةً الأغنياءُ من العربِ وكثيرٍ من أبناءِ الطبقةِ الوسطىَ إلى حياةِ التَّرفِ والدِّعةِ والاعتدادِ بالزَّائدِ من الكمَاليَّاتِ وفضولِ الحياة، والإسرافِ والتَّبذيرِ، والإستهانةِ بمالِ الله، في سبيلِ اللَّذةِ والشَّهوةِ.[3]

ونتيجةً لانتقالِ العدوى الغربيَّةِ إلى بلادِ المسلمين ظهرَت عنايةُ المسلمينَ بإقامةِ الحفلاتِ والمناسباتِ التي لم تكُن شائعةً من قُبلِ، مثلُ: ذكريَّاتِ الزَّواجِ وأعيادِ الميلادِ للأطفالِ والكبارِ، وأعيادِ الأمَّهاتِ والآباءِ، وأبَاحَ بعضُهم في هذه المناسباتِ القمارَ وشُربَ الخمرِ والرقصَ والغناءَ الخليعِ، كما ظَهرت كثيرٌ من عاداتِ الفراغِ والنُّزهةِ – خارج البيت والقطر– وهي عاداتٌ لا تُوافقُ حياةَ الأسرةِ المسلمةِ وواجباتِها في تربيةِ الأولادِ، وتَوجِيهِهم الوُجهةَ الإسلاميَّةَ الصَّحيحةَ.[4]

ويرى الدكتور محمد محمد حسين أنَّ احتفالَ المسلمين برأسِ السَّنَةِ الهجرية جاءَ لتأَثُّرِ المسلمين بالتقليدِ النَّصرانيِّ الذي يَحتفلُ برأسِ السَّنةِ الميلادية، ويعلِّقُ على هذا التَّقليدِ بقولِه: "لقدْ فَاتَ هؤلاء المقلدين اختلافَ الظُّروفِ والدَّلالات في الحالتين، لأنَّ أوَّلَ السَّنةِ الهجريَّةِ لا يُطابقُ هجرةَ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقد كان ميلادُه وهجرتُه كلاَهُما في شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ. وكان هذا اليومُ يمرُّ من قبلُ كغيرِه من الأيَّام لا يَكادُ يأَبَهُ بِه أَحدٌ.[5]

---

[1]– انظر واجب الشباب المسلم اليوم ص 16.

[2]– موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 186،187، وبمثلِ هذه الأخلاقِ التي يَعُدُّها الغربُ أخلاقًا ارتكبت بريطانيا جريمةِ إقامةِ وطنٍ لليهودِ في فلسطين، حيث نَكثَت عهودَها التي قطعها مندوبها مكماهون في محادثاته مع الشريف حسين عندما وعدهَ بإعطاءِ العربِ الحريةَ والاستقلالَ بعدَ إنتهاء الحربِ العالميَّةِ الأولى.

[3]– انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص 306.

[4]– انظر أثرَ الغربِ في الحضارةِ الغربية: محمود عباس العقاد ص 132.

[5]– الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 1/319–320.

وعن أثرِ الحضارةِ الغربيَّةِ في حياة المسلمينِ الاجتماعيَّةِ يقول المودوديُّ: "فإنَّ عشرتنا ومأكلَنَا ومشاربنَا ومنتدياتِنَا وعوائدنَا العائِليَّةَ وتقاليدَها في حفلاتِ الزَّواجِ والمآتمِ ومواسِمنَا ومؤتمراتِنَا ومواكبِنَا كلِّها صِيغَت بصيغةِ الجاهليَّةِ القديمةِ والجديدةِ، وملونةً بلونِهما.[1]

وعن أثرِ الحضارةِ الغربيَّةِ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ في بلاد الهندِ (باكستان والهند)، يقولُ "خوجه بخش" المسلم الهندى: إنَّ أوضحَ نتيجةٍ لهذا التَّطورِ هو تَزَلزُلِ نظامنِا القديمِ القائمةِ عليه حياتُنا المنزليَّةِ، وعاداتنا الاجتماعيةِ، وسببُ هذا التَّزلزلِ إنَّما هو تيَّارُ الحضارةِ الغربيَّةِ".[2] ويبَيَّنُ "خوجه بخش" مدَى أثرِ الحضارةِ المعاصرةِ في فسادِ الآدابِ، وانحطاطِ الأَخلاقِ والإنحرافِ عن الدِّينِ، ويُوضِّحُ ذلكَ بضَرْبِ عِدةِ أَمثلةٍ، منها: أنَّ الآباءَ فقدوا سلطانَهم في الأُسرةِ بعدَ أنْ ضَاعَت صفةَ احترامِ القديمِ، وإكرامِ الشُّيوخِ والكبارِ، واعتبار قال فلان، وروى فلان. ومنها طغيانُ موجةِ الإسرافِ والتَّبذيرِ والإنغماسِ في التَّرفِ، وإرتداءِ الملابسِ الأوربيَّةِ، واتباعِ أساليبِ المعيشةِ والحياةِ الأُوربيَّةِ. ومنهَا تَعاطي الخُمورِ والمُحرَّماتِ، ولعبِ المَيسِرِ والقمارِ.[3] وما حُصُلَ في الهندَ المسلمةِ حَصُلَ في غيرها من بلدان العالمِ الإسلامي. ففي مصرَ ولبنانَ انتشرت المُخدِّراتُ، وتجارةُ الرَّقيقَ الأبيضِ، ودورُ الرَّقصِ والغِنَاءِ، ووُجدَت المَلاهي والأَنديَّةِ التي تعجُّ بالفسادِ والمنكراتِ والفجورِ، وذلك كلُّه نتيجةَ تيَّارِ الحضارةِ الذي جرفَ هذه البلادِ.[4]

وعن أثرِ الحضارةِ الغربيَّةِ في المرأةِ التُّركيَّةِ، فلعلَّ ما قالته إحدى الفَتَياتَ التُركيَّاتِ عندَ وصولَها إلى إحدى الموانئِ البريطانيَّةِ يوضِّحُ ذلك: "إنَّ المرأةَ التُركيَّةَ اليومَ حرةٌ، لن تسيرَ في الطُّرقاتِ في ظلامِ (وهي مرتدية الحجاب)، وإنَّنَا نعيشُ اليومَ مثلَ نسائِكم الإنجليزيَّاتِ، ونلبسُ أحدثُ الأزياءِ الأوربيَّةِ والأمريكيَّةِ، ونرقُصُ ونُدَخِّنُ، ونسافرُ بغيرِ أزواجِنا".[5] وأمَّا بالنسبةِ لباكستان: فقد انغمست باكستانُ في ضَلاَلاَتِ الحَضارةِ الغربيَّةِ وانحرافاتِها الفكريَّةِ وويلاتِها الخُلُقِيَّةِ.[6]

ثانيًا: آثارُ الحضارةِ المُعاصرةِ في النَّواحي الثَّقافيَّة والتَّعليميَّة:

يقول المستشرق الإنجليزي جب في كتابه (وجهة الإسلام): "والسَّبيلُ الحقيقيُّ للحكمِ على مدى التَّغريبِ أو الفَرنَجَةِ هو أنْ نقيسَ إلى أيِّ حدِ يجري التَّعليمُ على الأسلوبِ الغربِّي، وعلى المبادئِ الغربيَّةِ وطريقةِ التَّفكيرِ الغربِّي. وقد رأينا المراحلَ التي مرَّ بهَا طبعِ التَّعليمِ

---

[1]- شهادة الحق ص 19.

[2]- حاضر العالم الإسلامي 261/2.

[3]- انظر نفس المصدر 262/2.

[4]- انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 349/2-350.

[5]- المصدر السابق 256/2.

[6]- تحديات العصر الحديث والشباب: المودودي ص 30.

بالطَّابَع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكيرِ الزُّعماءِ المدنيِّينَ، وقليلٌ من الزُّعماءِ الدِّينيِّين".[1] ويقرِّرُ جُب أنَّ النَّشاطَ التعليمي عن طريقِ المدارسِ العصريَّةِ والصَّحافةِ قد تركَ في المسلمين آثارًا سيئةً، حيثُ جعلَهم في مظهرِهم العامِ لادِينِيِّين إلى حدٍ بعيدٍ، ويُعَقِّبُ جُب على ذلك بقولِه: "وذلكَ خاصةً هو اللبُّ المثمرُ في كلِّ ما تركَت محاولاتُ الغربِ لحملِ العالمِ الإسلامي على حضارتِه من آثارٍ".[2]

ولكي ينقلَ الغربُ ثقافتَه الماديَّةَ وأفكارَه الهزيلةَ إلى ديارِ الإسلامِ وليُحَقِّقَ هدفَه من إبعادِ الأَجيالِ المُسلِمةِ عن دينِها أقامَ المؤسَّساتِ التَّعليميَّةَ التي يُشرِفُ عليها الأساتذةُ الغربيُّونَ وأَتباعُهم من أبناءِ المسلمين الذين تربَوْا في أَحضانَ الحضارةَ الغربيَّةِ، وعلى موائدِ ثقافتِه المَادِيَّةِ. ففي بيروت الجامعةُ الأمريكيَّةُ، وفي القاهرةِ الجامعةُ الأمريكيَّةُ، وفي غيرهما مدارسُ ومعاهدُ الإرسَالِيَّات التَّبشِيريَّةُ، يقولُ الشَّاعرُ الهنديُّ أكبرُ الإله آبادي مُعَلِقًا على مؤسَّسَاتِ الغربِ التَّعليميَّةِ المُنتشرةِ في عالمنَا الإسلامي: "يا لبلادةِ فرعونَ الذي لم يصل تفكيرِه إلى تأسيسِ الكُلِيَّاتِ، وقد كان في ذلك أسهلُ طريقٍ لقتلِ الأولادِ، ولو فعل ذلك لمْ يلحقْهُ العارُ وسوءُ الأُحدُوثةِ في التَّاريخِ".[3]

ويقول الدكتور محمد إقبال: "إيَّاكَ أنْ تكونَ آمنًا في العلم الذي تَدرسُه فإنَّه يستطيعُ أنْ يقتُلُ روحَ أُمَّةٍ بأَسرِها. ويقول: إنَّ نظامَ التَّعليمِ الغربي إنَّما هو مؤامرةٌ على الدِّينِ والخُلُقِ والمروءةِ".[4]

ومن تأثيرِ الحضارةِ المعاصرةِ في حياتِنَا الثَّقافيَّةِ أنْ أصبَحَت الجامعاتُ والمعاهدُ وأساتذتُها يعلنونَ أنَّ النَّظريَّاتِ والأفكارَ التي جاءت بها هذه الحضارةُ عن الفلسفةِ والتَّاريخِ والاجتماعِ والاقتصادِ والسِّياسَةِ والقانونِ والأخلاقِ هي التي يقبُلُها العقلُ ويؤيِّدُها البحثُ العلمِيُّ، وأمَّا موقفُ الإسلامِ من تلكَ الأفكارِ والنَّظريَّاتِ فلا يُلتَفتُ إليه لأنَّه يصادِمُ العلمَ الحديثَ كما يزعمون.[5] ومن هنا رَاجَت في جامعاتِنا النَّظرياتُ البَاطلةُ، والتي لا تَتَفقُ مع التَّصورِ الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان. فراجت نظريَاتُ دارون في النشوءِ والارتقاءِ وأصلِ الأنواعِ، ونظريَّاتُ فرويد في علمِ النَّفسِ، ونَظريَّاتُ إيميل دوركايم فى علمِ الاجتماع، ونَظريَّاتُ ماركس وإنجلز.[6] في الاقتصاد. وغيرها من النَّظريَّاتِ التي ما زَالت تُدرَّسُ في جامعاتِ ومعاهدِ المسلمين.

---

[1]– الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 202/2 .

[2]– نفس المصدر 204/2.

[3]– الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص 183.

[4]– نفس المصدر ص 184.

[5]– انظر شهادة الحق للمودودي ص 17.

[6]– انجلز: (1820– 1900م) هو فردريك انجلز، اشتراكي ألمانى، أسهم مع كارل ماركس في صناعة أُسُسِ النَّظريَّاتِ الاشتراكيةِ الحديثةِ، وشاركه في صياغةِ البيانِ الشيوعي عام 1848م،

وقد أَحدَثت هذه النَّظريَّاتُ في العالم الإسلامي ثورةً نفسيَّةً وفكريَّةً عنيفةً أَدَّت إلى الشَّكِ والجحودِ في العقيدةِ الإسلاميةِ، وكان معظمُ المتاثرين بهذه النَّظريَّاتِ هم من الأَجيالِ المُثقَّفةِ التي أقبلت على دراستها دون أن تكونَ لديهم خلفيَّةً ثقافيَّةً إسلاميَّةً، أو إيمانًا قويًا يمنعهم من الوقوعِ فريسةً للأوهامِ والخرافاتِ التي تَضَمَّنَتْهَا هذه النَّظريَّاتِ.

ومن الجديرِ بالذِّكرِ أنَّ أصحابَ هذه النَّظريَّاتِ من أَصلٍ يهوديٍ، وقد استَغَلَّت نَظريَّاتِهم اليَهوديَّةُ العالميَّةُ في القضاءِ على العقيدةِ النَّصرانيَّة المحرفةِ. فقد جاء في البروتوكولِ الثَّاني من بروتوكولات حُكماءِ صُهيون: "لا تَتَصوروا أنْ تَصريحاتِنا كلماتٍ جوفاء. ولاحظوا هنا نجاحَ نَظريَّاتِ داروين وماركس ونيتشه، قد رتَّبنَاه من قَبل، والأثرُ غيرُ الأَخلاقي لاتجاهاتِ هذه العلوم في الفكر الأُممي (غير اليهودي) سيكونُ واضحًا لنا على التَّأكيدِ".[1]

ومن آثارِ الحضارةِ في الجانب الثَّقافيِ السُّخريةُ والاستهزاءُ من الشَّبابَ المُسلمِ الذي يُقبِلُ على دراسةِ العلومِ الشَّرعيَّةِ، وعدمِ إتاحةِ فرصِ العملِ للمتخرجين من المعاهد والكليات الشَّرعيَّةِ، أو توظيفهمِ في وظائفَ بعيدةً الصِّلةِ عن مجالِ تَخَصُّصَهِم، وفي نفسِ الوقتِ تَشجيعِ الشَّبابِ المسلمِ على الدِّراسةِ في المعاهدِ والكليَّاتِ التي أُنشِئَت على النَّمَطَ الغربيِّ، وفُتحَت أبوابُ العملِ أمامَ المتخرِّجِينِ منَها. وإزاءَ هذا أقبلُ أبناءُ المسلمين على هذه المعاهدِ والكليَّاتِ التي مازالت مناهجُها مليئةً بالأفكارِ الهَدَّامةِ التي تَعملُ لإضعافِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ في قلوبِ الذين يَتَأَثَّرونَ بها.

وعن الآثارِ الخطيرةِ للثَّقافةِ الغَربيَّةِ التي انتقلَت إلى العالمِ الإسلامي بواسطةِ الشَّبابِ المُسلمِ الذي تَلَقَّى هذه الثقافةَ في معاهدَ وجامعاتَ أوروبا، يقولُ "اسميث" مؤلفُ كتابِ الإسلامِ في العصرِ الحديثِ: إنَّ من أهمِّ أسبابِ حركةِ الحُريَّةِ والإباحيَّةِ التي تسودُ اليومَ في العالم الإسلامي، ومن أكبرِ عواملِها نفوذُ الغربِ.

ولقد سافرَ كثيرٌ من الشَّبابَ المُسلمِ إلى الغرب، واطَّلَعوا على روحِ أُوروبَّا وقيمِها المَاديَّةِ، وقد أُعجِبوا بها إلى حدٍ، وينطبقُ هذا بخاصةٍ على الطُّلابِ الذين درسوا في جامعات أوروبا بعددٍ لم يزل يزدادُ مع الأيام، وهم الذين سبَّبوا استيرادَ كثيرٍ من أفكارِ الغربِ وقيمِه المخالفة لروح الإسلام إلى العالم الإسلامي.[2]

واشتركَ في تدبيرِ الحركاتِ الثَّوريَّةِ في أوروبا، من أهم كتبه: أنتيس دوهرنج، الذي شرح فيه النظرية الماركسية من جميع جوانبها المختلفة، وجدليات الطبيعة، ويُعَدُّ من أهمِّ الكتب الشيوعية بعد كتاب رأس المال لماركس. انظر الموسوعة العربية الميسرة 237/1.

[1]– بروتوكولات حكماء صهيون: ترجمة محمد خليفة التونسي، انظر البرتوكول الثانى منها.

[2]– نقلاً عن الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: أبو الحسن الندوي، الطبعة الثانية، ص 186-187.

ولقد كان للحضارةِ الغربيَّةِ آثارُها الخطيرةُ في أبناءِ المسلمين الذين تَرَبَّوْا في المدارسِ الأوربيَّةِ والأمريكيَّةِ، حيثُ جعلتهُم ينظرونَ إلى كلِّ شيءٍ بمنظارِ الغربِ المادِّي، ويفكِّرونَ في كلِّ مسألةٍ بالذهنِ الغربِّي، ولم يَعُد من المُمْكِنِ لهم أنْ ينظروا أو يفكِّروا مُستَقِلِّينَ عن هذا التَّأثيرِ الغربِيِّ. إنَّهم تَلَقُّوا من الغربِ دروسًا في المذهب العقليِّ، ولكنَّ العقلَّ في رؤسِهم لم يكنْ عقلُهم أنفسَهم، وإنَّما استعاروه من الغربِ، فجاءَ مذهبُهم العقليِّ وفقَ المذهبِ العقليِّ الغربيِّ فى الحقيقةِ، لا حسب المذهبِ العقليِّ الحُرِ. وأَخذوا من الغربِ مذهبَ النَّقدِ أيضًا ولكنَّه لمْ يكنْ درسًا في النَّقدِ البرئ الحُرِ، بل كان درسًا لأنْ ينتَقِدَ كلَّ ما ليس غربيًا بمقياس المبادِئ الغربِيَّةِ التي يجبُ أنْ يَعتقدَها حقًا، وأرفعَ عن كلِّ نقدٍ.

ولمَّا تخرَّجَ هذا الجيلُ من الكليات الغربيةِ، مُتَحلِّينَ بهذا التَّعليمِ والتربيَّةِ، وخاضوا غمارَ العملَ في الحياةِ، كانت قلوبُهم وأذهانُهم قد وقعَ بينَها بُعدَ المَشرقين، كانت القلوبُ مسلمةً ولكنَّ الأذهانَ غيرُ مسلمةٍ، وكانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين، وكانت معاملتهم اليومية أيضا مع المسلمين، وكانوا متَّصلِين بهم بروابطِ التَّمدُّنِ والاجتماعِ، يشاهدون فيما حولَهم أحوالَ حياةِ القومِ الدِّينيَّةِ والمدنيَّةِ، وتَتَعلَّقُ بهم أيضًا أواصرُ حبِّهم ونُصحِهم، ولكنَّ كلَّ ما يملكونَ من الفكرِ والفهمِ وتكوينِ الرأي كان قد انسكبَ في القَالَبَ الغربي. فلم تَكُن تطابِقُه أيُّ ضابطٍ من ضوابط الإسلام، ولا عملٍ من أعمالِ المسلمين، فجاءَ القومُ ينَتقِدونَ كلَّ شيءٍ يتصلُ بالإسلام أو المسلمين بالمقياس الغربِيِّ. فكلُّ ما وجدوه لا يُوَافِقُ هذا المقياسَ اعتبروه خطأً وأمرًا واجبَ الإصلاحِ والتَّرميمِ سواءٌ أكانَ من أصولِ الإسلامِ أو فروعه، أمْ كانَ من عملِ المسلمينِ فَحَسْب. ومنهم من عَنَوا أيضًا بدراسةِ الإسلامِ دراسةً قليلةً لأجلِ البَحثِ عنْ أسبابِ هذه الحالِ المُتخلِّفةِ، ولكنَّه ما دامَ مقياسُ نقدِهم وتحقيقِهم غربيًا صِرفًا فكيف كان للتَّعليمِ الإسلاميِّ المستقيمِ أنْ يُطَابِقَ ذِهنيَّتَهم الزَّائفةِ المعوَجَّةِ.[1]

وفي مجالِ الأدبِ ظهرَ أثرُ الغزوِ الفكريِ الغربيِ في أفكارِ وانتاجِ كثيرٍ من الأُدباءِ المسلمين من أمثالِ نجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس ونزار قبانى، حيثُ ظهرت في كتاباتِ هؤلاء الرُّوحُ الأدبيَّةُ والنَّزعةُ الثقافيَّةُ التي وُجِدَت عند أُدباءِ انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا. وتأَثَّرَ هؤلاء الأدباءِ بأدبِ الجنسِ الذي روَّجَتْهُ الحضارةُ الغربيَّةُ. حيثُ يشرفُ عليه اليهودُ خاصةً ذلك الأدبُ الذي أَخرجَ المرأةَ من أُنوثَتِها، وجعلَها سِلعةً رخيصةً للمُتعةِ واللَّذةِ، وكثُرَ انتاجُهم الأَدبيُّ الفارغُ الذي يدعو الشبابَ والفتياتِ للخروجِ عن الأداب والقيمِ الإسلاميَّةِ، ويدعوهُم للجريِ وراءَ الشَّهواتِ وتَحقِيقِ الرَّغباتِ الجِنسيَّةِ، ومن عجبٍ أنْ يُوصَفَ هؤلاء الأُدباءِ الخارجين عن قيمِ وفضائلِ الإسلامِ بالتَّقدُميينَ الحضارِيِّين، بينما أُطلِقت الألفاظُ والألقابُ الأخرى – كالتَّزَمُتِ والتَّعصُبِ والرجعيَّةِ – على الشبابِ المُسلمِ الملتزمِ بحدودِ دينِهِ وأَحكامِ شريعتِهِ.

---

[1]– انظر نحن والحضارة الغربية للمودودي ص 125–126.

ويرى المودوديُّ أنَّ الأدبَ في عالمِنا الإسلامي هو أبعدُ شيءٍ عن الفضائلِ والادآبِ، لأنَّه يُزَيِّنُ للنشءِ المسلمِ الفلسفةَ الخُلُقيَّةَ الغربيَّةَ، وينزعُ من نفوسِهم وأذهانِهم كلَّ أثرٍ للأخلاقِ والفضائلِ الإسلاميَّةِ الحَميدةِ.[1] ويضربُ المودوديُّ أمثلةً للأدبِ الجنسيِ الذي رَوَّجتهُ المجلاتُ الأدبيَّةُ في الأوساطِ الهنديَّةِ المُسلمةِ، تقليدًا منها للأدبِ الغربيِّ الذي يدعو إلى السُّفورِ والاختلاطِ واتِّخاذ العشِيقَاتِ والأخدان، كما يدعو إلى اقترافِ الفاحشةِ، وإتيان الدَّعارة.[2] ثمَّ يُعَقِّبُ المودوديُّ على هذا النَّوعِ من الأَدبِ، بقوله: "فإن أنتَ قارنتَ بينَ هذا الأدبِ والأدبِ الفرنسي – الذي سقنَا لكَ بعضَ نماذجِه فيمَا سبقَ– تَبَيَّنَ لك أنَّ الرعيلَ من أُدَبائِنَا الشَّرقيين لا يزالون يتَّبِعون في سيرِهم خُطَى أَساتذتِهم الغربيِّين. فالطَّريقُ هو الطَّريقُ، والغايةُ هي الغايةُ، وهم يُرَبُّونَ العقولَ ويُعِدُّون الأذهانَ لذلك النظامَ الغربيِّ للحياة من الجهة الفكريَّةِ والخُلُقيَّةِ. وعنايتُهم في ذلك مصروفةٌ إلى المرأةِ بوجهٍ خاص، لكي لا يُترَكُ فيها أثرٌ للخفرِ[3] والحياء.[4]

ومن آثارِ الحضارةِ المُعاصرةِ في حياتِنا الثَّقافيةِ ظهورُ الدَّعوةِ إلى اللهجةِ العَامِيَّةِ، ودراسةُ اللَّهجاتِ السوقيَّة وآدابِها، وهي دعوةٌ غربيَّةٌ الأصلُ والمنشأُ، حيث قادَها في مصرَ منذ عام 1880م وفي ظلِّ الاستعمارِ الغربي للعالم الإسلامي مجموعةٌ من المُنصِّرين النّصارى الذين تَربِطَهم بالاستعمارِ الغربِيِّ صالاتٌ واضحةٌ، أمثالُ: سبتا، وفولارز، وبوريان، وماسبيرو. ثمَّ ردَّدَ هذه الدَّعوةِ سنة 1882م فارس نمر[5] صاحب صحيفة "المقتطف" والمعروف بصلاته المشبوهة.

وقدْ أثارَ هذه الدَّعوةَ في مصرَ أيضًا مهندسُ المجاري الإنجليزي "وليام ويكلوس" عندما ألقى محاضرةً بعنوان: "لماذا لم توجد قوَّةُ الاختراعِ عند المصرين؟"، وقرَّرَ في هذه المحاضرةِ أنَّ تأخرَ المصريين يعودُ إلى استخدامِهم اللغةَ العربيَّةَ الفُصْحَى لغةً للعلمِ والأدبِ، وهي لغةٌ – حسب زعمِه– لا تَصلُحُ لهما.[6]

---

[1]– انظر الحجاب ص 121.

[2]– انظر نفس المصدر ص 121–125.

[3]– الخفر: شدَّةُ الحياء، انظر مختار الصحاح للرازى مادة خفر.

[4]– انظر الحجاب ص 127–128.

[5]– فارس نمر: (1856–1951م) هو فارس نمر بن فارس أبي ناعسة، كاتب وصحفي، نصرانى أنشأ صحيفة المقتطف بالاشتراك مع النصراني يعقوب صروف في بيروت 1879م، ثمَّ نقلاها إلى القاهرة 1885م، وفي القاهرة أنشا مع يعقوب صروف وشاهين مكاريوس جريدة المقطم اليومية السياسية 1988م. كان عضوًا في عده من المجامع اللغوية والعلمية. وله مؤلفات في علم الهيئة، وقد منح لقب دكتوراه في الفلسفة من جامعة نيويورك 1980م. انظر الأعلام: الزركلي 324/5، الموسوعة العربية الميسرة 1847/7.

[6]– انظر الغزو الفكري أهدافه ووسائله: د. عبد الصبور مرزوق ص 114.

ولقد كانت الدَّعوةُ إلى اللَّهجةِ العّاميَّةِ جزءًا من المُخَطَّطَ الاستعماري الذي يَهدفُ إلى السَّيطرةِ على العالمِ الإسلامي والقضاءِ على عقيدتِه الإسلاميَّةِ. وقد جاءَ في كتابِ "قضايا إسلاميَّة مُعاصرة".[1] ما يلي: "عُقِدَ في عام 1907م بلندن مؤتمرٌ ضمَّ جميعَ الدُّولِ الأوربيَّةِ الصِّناعيَّةِ برئاسة "كامبل نيرمان" رئيس الوزراء البريطاني، وكان هذا المؤتمرُ ينظرُ في الوسائلِ التي تُوصِلُ إلى الإبقاءِ على السَّيطرةِ الأُوربيَّةِ على العالمِ الإسلامي، ومواجهةُ حركاتِ اليَقظةِ الإسلاميَّةِ، وانتهى النقاشُ إلى أنَّ العالمَ الإسلاميَّ يُشكِّلُ الخطرَ الرئيسِيَّ على مستقبلِ الدُّولِ الصِّناعيَّةِ، وكانت العقيدةُ القرآنيَّةُ واللغةُ المشتركةُ من بين الأُسُسِ التى رؤيَ التَّركيزُ على إضعَافِها وتَصفِيَتِها، وضُمَّت في المؤتمرِ الخُططُ التي من شأنِها تَحقِيقِ أهدافِهم، وذلك بتشجيعِ اللَّهجاتِ العاميَّةِ، وإضعافِ العقيدةِ الإسلاميَّة، وإثارةِ الطائفيَّةِ الدِّينيَّةِ والعُنصُريَّةِ، وإيجاد دويلةٍ يهوديَّةٍ في قلبِ العالمِ الإسلامي لتَمتَصَّ كلَّ مواردِه القوميَّةِ الرئيسيَّةِ".

وبالفعلِ استطاعَ الغربُ تحقيقَ ما خَطَّطَ له في هذا المؤتمرَ، ومعه تلاميذهُ المخلصون في العالم العربي، أمثالُ المبشرين النَّصارى فَرح أَنطون، وشِبلِي شميل، وسَلامَة موسى، وسعيدُ عقِل، وبعضُ المستغربين من أبناءِ المسلمينِ، أمثال: أحمد لطفي السيد،[2] وطه حسين[3] بالدَّعوةِ إلى اللَّهجةِ العاميَّةِ، وهجرِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى، وتمكينِ العاميِّةِ من الأعمالِ الأَدبيَّةِ، والتَّمثيلِ، والمسرحِ والصَّحافةِ، وما زالت آثارُ هذه الدَّعوةِ قائمةً، فهي اليومَ عقبةٌ كؤودٌ في طريقِ العودةِ إلى لُغةِ القرآنِ الكريمِ.[4]

---

[1]– تأليف د. عبد الشافي عبد القادر، ود. رافت غنيمي الشيخ ص 38–39.

[2]– أحمد لطفي السيد (1872–1973م): من رواد الحركة الأدبية في مصر، حصل على ليسانس الحقوق وعمل في النيابة والقضاء، واشتغل في السياسة، وشارك في إنشاء حزب الأمة المصري، عمل مديرًا لدار الكتب المصرية، ثمَّ مديرًا للجامعة المصرية، فوزيرًا للمعارف، فرئيسا لمجمع اللغة العربية عام 1945–1963م. وعُيِّنَ وزيرًا للخارجية عام 1946م، فنائبًا لرئيس الوزراء. انظر الموسوعة العربية الميسرة 92/1.

[3]– طه حسين(1889–1974م): كاتب مصري وباحث أدبى، تَتَلمذَ على يدِ المستشرقين الفرنسيين، وانتفعَ من أبحاثِهم ومناهجِهم في دراسة الأدب العربي، حصل على الدكتوراه من السربون بفرنسا، كما نالَ الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة، لُقِّبَ بعميدِ الأدبِ العربى، له مؤلفاتٌ وأبحاثٌ عديدةٌ: منها الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر، وفيهما نشرَ أفكارَه وآراءَه السَّقيمةَ التي تلقَّاها عن المستشرق الإنجليزي مرجليوت، ودعا إلى إقتفاءِ آثارِ الحضارة الغربية، وإلى إقامةِ شئون الحكم على أساسٍ مدنيٍ لا دخلَ للدِّينِ فيه (العلمانية)، وإلى إخضاعِ اللغةِ العربيةِ لسُنَّةِ التَّطور. انظر الموسوعة العربية الميسرة 1164/2، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 229/2.

[4]– انظر الغزو الفكري: د. عبد الصبور مرزوق ص 15، حصوننا مهددة من داخلها: د. محمد محمد حسين ص 232.

ومن آثارِ الحضارةِ الغربيَّةِ في عالمِنَا الإسلامي وجودُ نسبةٍ كبيرةٍ من الكُتَّابِ والمفكرين والأُدَباءَ الذين يُنَاصرون اللُّغاتِ الغربيَّةَ –كالإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ–، ويدعونَ إلى كتابةِ العربيِّةِ بالحروفِ اللَّاتينية، بدعوَى أنَّ ذلك سَيُلْحِقُ المسلمينَ بالرَّكْبِ الحَضَارِي الغَرْبِيِّ.[1]

ولقد كان عبد العزيز فهمي[2] أحدُ الدُّعاةَ إلى كتابةِ العربيَّةِ باللَّاتينيَّةِ، ولكنَّ دعوتَه ولِدَت ميتةً، والحمد لله تعالى.

ومن الأمورِ الغريبَّةِ على البيئةِ الإسلاميَّة والتي وَفدَت على المسلمين نتيجةَ تأَثُّرِهم بالغربِ الاختلاطُ بينَ الشَّبابِ والشَّاباتِ في المعاهدِ والجامعاتِ، حيثُ يجلسُ الفتَى بجوارِ الفتاةِ على مقاعدِ الدِّراسَةِ، ولقد ظهرت نتائجُ هذا الاختلاطِ في البلادِ الغربيَّةِ. ففي أمريكا مثلاً أثبَتَت الإحصائيَّاتُ أنَّ كثيرًا من الفتياتِ في المدارس الثَّانويَّةِ قد حَمَلْنَ من الزِّنَا.[3]

ومن آثارِ الحضارةِ الغربيَّةِ في الجانبِ الثَّقافي أنْ أصبحَ أبناءُ المدارسِ والجامعاتِ في عالمنا الإسلامي يَعرفونَ عن تاريخِ أوروبا وحضارتِها الجاهليَّةِ أكثرَ ممَّا يَعرفونَ عن تاريخِ الإسلامِ وحضارتِه العريقةِ.

ثالثًا: آثارُ الحضارةِ المُعاصرةِ في النَّواحي السِيَاسِيَّةِ:

لقد تأثَّرَ المسلمون المثقفون بالثقافةِ الغربيةِ بنظرياتِ الغربِ السياسيَّةِ القائمةِ على اللادينية والقومية والديمقراطية. وأخذوا بها كنظامٍ سياسيٍّ لهم دونَ نقدٍ أوْ تَمحيصٍ، بل تقليدًا للغربِ الذي يدينون له بالولاءِ، وهم يحسبون أنَّ التقليدَ السياسيَّ يستلزمُ السيرَ وراءَ الغربِ وتَتَبُّعُ نظرياتِه وأفكارهَ السِياسِيَّةَ، مع أنَّ نظريَّاتِ الغربِ السِيَاسِيَّةِ مستمدةٌ من تَصَوُّرِهم اللاديني عن الكونِ والحياةِ، وهو تصورٌ بعيدٌ جدًا عن التَّصورِ الإسلاميِّ الصحيحِ. وقدْ استطاعتْ نَظريَّاتُ الغربِ السياسيةِ اللادينيَّةِ أنْ تُفسِدَ على المسلمين كيانَهم، وأنَّ تأتيَ على عقائدِ الكثيرِ منهم.[4] ومع الأَسفِ الشَّديدِ ما تزالُ نظريَّاتُ الغربِ القوميَّةُ والديمقراطيَّةُ سائدةً في كثيرٍ من ديار الإسلامِ إلى اليوم.

بِالنِسبةِ للقوميَّةِ، لم يكنْ المسلمون يعرفونَ شيئًا عن الفكرةِ القوميَّةِ بالمفهومِ الغربي إلاَّ في القرنِ التَّاسعِ عشرَ الميلادي، عندما وَفَدَت هذه الفِكرةُ بتأثيرِ الحضارةِ الغربيَّةِ التي زَحَفَت

---

[1]– قضايا إسلامية معاصرة ص 243 وما بعدها.

[2]– عبد العزيز فهمي(1870– 1948م): هو عبد العزيز فهمى باشا ابن الشيخ حجازى عمرو، قاضى وسياسى مصري، كان رئيسًا لحزبِ الأحرارِ الدُّستوريين، ورئيسًا لمجمعِ اللغة العربية، ونقيبًا للمحامين، ورئيسًا لمحكمةِ الاستئناف ومحكمة النَّقضِ، ووزيرًا للعدل، ووزيرًا للدَّولة. انظر الأعلام: الزركلي 155/4، الموسوعة العربية الميسرة 1183/2.

[3]– انظر الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 266.

[4]– انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 186–187.

إلى العالمِ الإسلامي مع الغزوِ العسكريِ الغربي له. ونتيجةً لذلك انتشرت بين المسلمين الأغاني والأناشيدُ التي تَشيدُ بالجنسيَّةِ والوطنيَّةِ، وأصبحَ الغربيُّ يفتخرُ بقوميَّتِه، والتُّركيُّ يتغنَّى بأَمجَادِ أَجدادهِ، "جنكيز خان"، و"هولاكو"، والإيراني يعتزُّ بأَجدادِهَ الفرسِ، "رُستم" و"اسفنديار"، والهنديُّ يفتخرُ بقوميَّتِه الهنديَّةِ، ويعتزُّ بأبطالِهِ الهندوسِ، أمثال "بهيم" و"أرجن". وبذلك انقطع كلُّ قومٍ لترابِ وطنهمِ، وبني جنسيَّتِهم، وانحصرت آماله إلى حدودِ بلدِه، وأمَّا البُلدانُ الإسلاميَّةُ الأخرى فهيَ بالنِّسبةِ له فهي بلادٌ أجنبيَّةٌ شأنُ البلادِ الأوربيَّةِ.[1]

ويعدُّ العالمُ العربيُّ أكثرَ من تأثَّرَ بفكرةِ القوميَّةِ الجديدة التي سادت أوروبا، والتي وَفَدَت إليه في النِّصفِ الثَّانِي من القرنِ التاسعِ عشرَ، وكانت بلادُ الشَّامِ هي أسرعُ أجزاءُ العالمِ العربيِّ تأثرًا بهذهِ الفكرةِ، التي روَّجَ لها نصارى لبنان وسوريا.[2] ثمَّ تأتِي بلادُ الهندِ، حيثُ راجت فيها فكرةُ القوميَّةِ الهندوسيِّةِ عند الهندوسِ، وفكرةُ القوميَّةِ المُسلمةِ عندَ المسلمين الذين كانت زعامتُهم السياسيِّةُ لحزبِ الرابطةِ الإسلاميَّةِ، ولمَّا قامت دولةُ باكستان عام 1957م استمرَّ زعماءُ الرَابطةِ الإسلاميَّهِ –الذين تَوَلَّوْا الحكمَ فيها– في دعوتِهِم إلى القوميَّةِ المُسلِمَةِ.[3]

يقولُ المودوديُّ: "وهؤلاء زُعماؤُنَا ومالكوا أَزمةِ شؤونِ الأمَّةِ لا يَعرِفُونَ لهم نَعرةً غيرَ النَّعراتِ الوطنيَّةِ، ولا نَزعةً غيرَ النَّزعاتِ القوميَّةِ".[4] ويُرَجِّحُ المودوديُّ السببَ في إقتداءِ المسلمينِ بالغربِ في التَّمسُّكِ بالفكرةِ القوميَّةِ إلى جهلِ المسلمين بالثقافةِ الإسلاميَّةِ والثقافةِ الغربية على حدٍ سواءٍ، وإلى غيابِ الأُسُسِ والحقائقِ عن عيونِهم التِي تنظرُ إلى الأُمورِ نظرةً سطحيَّةً، فيستولِيَ عليها ما تقعُ عليهِ من بريقٍ خادِعٍ.

إنَّ القوميَّاتِ الغربيَّةَ يعتمدُ بناؤُها على أساسٍ من اللونِ واللُّغةِ والجندرِ،[5] والوطنِ، وهذا ما يجعلُ كلَّ فردٍ منهم ينفرُ من كلِّ فردٍ، ليس من بني جنسِه أو وطنِه، حتَّى ولو كانَ الفاصلُ بينَ حدودِ أوطانِهم ميلاً واحدًا. كما أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يستحيلُ أنْ يُخلِصَ لغيرِ شعبِه وأهلِ وطنِه، أو لدولةٍ غيرِ دولتِه. أمَّا القوميَّةُ الإسلاميَّةُ فتختلفُ عن القوميِّةِ الغربيَّةِ، بل هي على النقيضِ منها. لأنَّ أساسَ بنائَها الإيمانُ والعملُ فحسب، أمَّا الجنسُ والوطنُ

---

[1]– انظر الحكومة الاسلامية ص 191، أضواء على حركة التضامن الإسلامي ص 42–43.

[2]– انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ص 99–100.

[3]– يرادُ بالقوميَّةِ المسلمة عند حزبِ الرَّابطةِ الإسلاميَّةِ ما يُصطلَحُ عليه بالإسلام الجُغرافي، أي الاهتمامُ بقضايا المسلمين الباكستانيين لا غير.

[4]– شهادة الحق ص 17، 18.

[5]– مصطلح النوع الاجتماعي "الجندر" يطلقُ على العلاقات والأدوار الاجتماعية والقيم التي يحددها المجتمع لكل من المرأة والرجل، وتتغير هذه الأدوار والعلاقات والقيم وفقا لتغير المكان والزمان، وذلك لتداخلها وتشابكها مع العلاقات الاجتماعية الأخرى مثل: الدين والطبقة الاجتماعية والعادات والتقاليد والعرق والبيئة والثقافة والإعلام.

واللونُ فلا اعتبارَ، ولا وزنَ لها فى التَّصورِ الإسلامي. والمسلمون في أنحاءِ العالمِ تجمعُهُم رابطةُ الأُخوةِ في العقيدةِ والدينِ. والمسلمُ إذا ما حلَّ في أيَّ بلدٍ إسلاميَّةٍ فهو يشعرُ أنَّه في بلدهِ بينَ أهلهِ وإخوانه، كما أنَّه يَتمتَّعُ فيها بحقوقِ المواطنةِ (هذا حسب التَّصورِ الإسلامي للدَّولةِ المُسلمةِ)، والمسلمُ المصري يفرضُ عليه الواجبُ الدينيُّ أنْ يُقاتلَ دفاعًا عن أفغانستان المسلمةِ إذا مَا تَعرَّضَت لغزوٍ أجنبيٍ كافرٍ. وعلى هذا فليس – في الإسلام – حدودٌ جغرافيَّةٌ أو فواصلَ جنسيَّةً بين المسلمين.[1]

ولقد بيَّنَ الشاعرُ الدكتورُ محمد إقبال الفوارقَ بين فكرةِ القوميَّةِ الغربيةِ وفكرةِ القوميَّةِ الإسلاميَّةِ، فقال: "ولا تقارنُ بين قوميَّتِكِ وقوميَّةِ الغربِ

لأنَّ قومَ الرَّسولِ الهاشمى متفردون في تركيبتهم

وجماعة الغرب تقومُ على الوطنِ والنَّسبِ

أمَّا جماعتُك فتستمدُّ تماسكَها واستحكامها من قوةِ دينِك[2]

ولقد عملَ الغربُ على سيادةِ فكرةِ القوميَّةِ اللادينيةِ في العالم الإسلامي، ليُحَقِّقَ من وراءِ ذلك أهدافَه الاستعماريَّةَ في السَّيطرةِ على هذا العالم . فالغربُ يعرفُ أنَّ إحساسَ كلِّ مسلمٍ بقوميتِه المحليَّةِ يستلزمُ ضرورةَ القضاءِ على القوميَّةِ الإسلاميَّةِ الواحدةِ التي تَجمَّعَ المسلمون حولَها، حيثُ تنقضي روابطُ الأخوةِ في الدِّينِ، وتَتَفَتَّتُ عُرَى المسلمين، وتسودُ بينهم النَّعراتُ والشِّعاراتُ الجاهليَّةُ، ممَّا يجعلَهم لقمةً سائغةً يَسهُلُ على الاستعمارِ الغربيِّ ابتلاعُها، وفعلاً حَقَّقَ الغربُ ما أرادَ، فاستطاعَ القضاءَ على أكبرِ دَولتينِ إسلاميتَيْن، وهما الدَّولةُ المغوليَّةُ في بلادِ الهند، والدَّولةُ العثمانيَّةُ التي كانت سيادتُها تشملُ مساحةً كبيرةً من العالمِ الإسلامي. فالدولةُ المغوليةُ قضى عليها عندما اعتزَّ الهنودُ بقوميتِهم الهنديَّةِ، وعندما افتخرَ المغولُ بقوميتِهم المغوليَّةِ. والدولةُ العثمانيَّةُ قضى عليها عندما نجحَ الغربُ الاستعماري في التَّفريقِ بين العربِ والأكرادِ والأتراكِ، الذين يُشَكِّلونَ جميعًا دَعائمَ الدولةِ العثمانيَّةِ.[3] فغرسَ في العربِ فكرةَ القوميَّةِ العربيةِ، وغرسَ في الأتراك فكرةَ القوميَّةِ الطورانيةِ، حتَّى تأَجَّجَت الفتنةُ بين دُعاةِ القوميَّتَيْنِ، وكسبَ الاستعمارُ العربَ إلى جانبِه في الحربِ العالميَّةِ الأولى، فقاتلَ العربُ الأتراكَ إخوانَهم في الدِّينِ والعقيدةِ، ومن ثمَّ تناثرت أجزاءُ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، وأُلغيَت الخلافةُ الإسلاميَّةُ التي حافظَ عليها الأتراكُ عِدَةَ قرونٍ، ووقعَ العالمُ العربيُّ تحتَ السَّيطرةِ الأُوربيَّةِ، وأُنشئت لليهودِ دولةً في قلبِ هذا العالمِ الذي مازالَ يعاني من وجودِها المصائبَ والنكباتِ.[4]

---

[1]– انظر الحكومة الاسلامية للمودودى ص 160، 161.

[2]– انظر المصدر السابق ص 162.

[3]– انظر المصدر السابق ص 160.

[4]– انظر أضواء على حركة التضامن الإسلامي ص 44، 45، 46.

وممَّا يؤكدُّ على استمرارِ تأثيرِ الفكرَةَ القوميَّةِ اللادينية الغربيَّةِ في العالمِ العربيِّ وجودُ حزبِ البَعثِ العربيِّ الاشتراكيِّ الذي استطاعَ السَّيطرةِ على الحكمِ في كلٍ من سوريا والعراق، ومن الشِّعارات التي رفعَها هذا الحزبُ: العربُ أُمَّةٌ واحدةٌ ذاتُ رسالةٍ خالدةٍ، وتعتبرُ الأرضُ التي تَسكنُها وطنَها العربيَّ، وهي الجبالُ التي تَمتَدُّ ما بين جبالِ طوروسِ وجبال بشتكويه وخليج البصرة، والبحر العربي، وجبال الحبشة، والصحراء الكبرى، والمحيط الأطلسي، والبحر الأبيض المتوسط.[1]

ومن المعلومِ أنَّ هذا الحزبَ من الأحزابِ اللاَّدِينيَّةِ العديدةِ التي تُوجدُ في العالم العربي، فمن مبادئ هذا الحزب:-

أ-حزبُ (البعث العربي الاشتراكي) اشتراكيٌ، يؤمنُ بأنَّ الاشتراكيَّةَ ضرورةٌ منبعثةٌ من صميم القوميَّةِ العربيَّةِ، لأنَّها النظامُ الأمثلُ الذي يسمح للشعبِ العربيِّ بتحقيقِ إمكانياتِه، وتَفتُّحِ عبقريتَه على أكملِ وجهٍ، فيضمن للأمَّةِ نموًا مطردًا في إنتاجِها المعنوي والمادي، وتآخيا وثيقًا بين أَفرادِها.

ب- يوضَعُ بملءِ الحُريَّةِ تشريعٌ مُوَّحدٌ للدول العربيَّةِ، ينسجمُ مع روحِ العصرِ الحاضرِ، وعلى ضَوءِ تَجارِبِ الأمَّةِ العربيَّةِ في ماضيها.[2]

وأمَّا بِالنِسبَةِ للديمقراطيَّة الغربيَّة، فقد أخذت بها كثيرٌ من دولِ العالمِ الإسلامي نتيجةَ تأثُّرِ حكامِها والطبقةِ المثقفةِ فيها بنظريَّاتِ الغربِ السِيَاسِيَّةِ، التي تَعتَبِرُ الشَّعبَ مصدرَ السُّلطةِ والحكمِ، فلا تَصدُرُ القوانينُ والتَّشريعاتُ إلاَّ بإرادةِ الشَّعبِ، ولا تَتَغيرُ أو تَتَبدَّلُ إلاَّ بموافقةِ الشَّعبِ، كما أنَّ أجهزةَ الدَّولةِ ومؤسَّسَاتِها لا يتِمُّ تكوينُها إلاَّ بإرادةِ الشَّعبِ، وتنفيذًا لفكرةِ الديمقراطيَّةِ الغربيَّةِ أَنشَأَت الحكوماتُ المتفرنجةُ في عالمنا الإسلامي المجالسَ البرلمانيةَ أو ما يُطلقُ عليها بمجالسِ الشَّعبِ أو مجالسِ الأُمَّةِ. ويتكوَّنُ أَعضاءُ هذه المجالسِ نتيجةَ الانتخابِ من قبلِ الشَّعبِ، وغالبًا ما يصلُ إلى هذهِ المجالسِ الأشخاصُ الذين ينالونَ رضَا السُّلطةِ الحاكمةِ التي تُشرِفُ على الانتخاباتِ، وتَتَحَكَّمُ في توجيهِها. وقد أدَّى الأخذُ بالنِّظامِ الديمقراطي الغربي إلى انتشارِ الفوضي، والرَّذيلةِ والخلاعةِ، والفسقِ والفجورِ، والكذبِ والخداعِ، كما أدَّى إلى انتشارِ الإلحادِ الذي تُوَجِّهُ الأحزابَ اليَساريَّةَ باسم حريَّةِ الفكرِ وحريَّةِ المُمَارسةِ الحزبيَّةِ، تلك الحريَّةُ التي يراها ويبارِكُها النِّظامُ الديمقراطيُّ الدَّخيلُ.[3] إنَّ فوضى النِّظامِ الديمقراطيِ أدَّتْ إلى قيامِ الانقلابات العسكريَّةِ التي يقودُها رجالُ سيَّرَتْهُم دولُ الغربِ الرأسمالية والشيوعية.

---

[1]- نقلا عن كتاب الأحزاب السياسية في سوريا، انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندووي ص 198.

[2]- المصدر السابق ص 149.

[3]- انظر نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور والقانون للمودودي ص 33، 39، ومنهاج الإسلام في الحكم: محمد أسد ص 78، 79.

ومن آثارِ النِّظامِ الديمقراطي الغربي في العالم الإسلامي ظهورُ الدَّعوةِ بكفالةِ الحُريَّةِ الشَّخصيَّةِ كما عرفَها العالمُ الغربيُّ، ولقد كانَ أَصحابُ هذه الدَّعوةِ من المتأَثِّرينِ بالثَّورةِ الفرنسيَّةِ وأراءِ زعمائِها ومفكريها من اليهودِ والماسونِ، الذين أطلقوا شعاراتِ (الحُريَّةُ– الإخاءُ– المساواةُ)، ونادى دُعاةُ الحُريَّةِ من الكُتَّابِ والشُعراءِ والصَّحفيين وغيرِهم بإعطَاءِ الفردِ الحريَّةِ المُطلقةِ في الاعتقادِ والسُلوكِ، والحريَّةِ في التَّعبيرِ والتَّرويجِ لأفكارِه وآراءِه،[1] ولمَّا ظهرت نتيجةً للحريَّةِ الشَّخصيَّةِ في العالمِ الغربيِّ الأحزابُ السِياسيَّةُ المتناقضةُ فكريًا وعقائديًا، انتقلت عدواها إلى البلاد العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، فظهرَت الأحزابُ الإلحاديَّةُ، كالشيوعيَّةِ والاشتراكيَّةِ، والأحزابُ الديمقراطيَّةُ والوطنيَّةُ، التي يدَّعي أصحابُها الإيمانَ. ولقد كانت هذه الأحزابُ جميعًا من معاولِ هدمِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ في نفوسِ أبناءِ المسلمين.

وأمَّا بِالنسبَةِ لآثارِ الفكرِ السِّياسي الاشتراكي فتُشَاهدُ واضحةً في البلادِ العربيةِ والإسلاميَّةِ التي خضعتْ لنفوذِ دُولِ المعسكر الشيوعى، خاصةً بعدَ قيامَ الانقلاباتَ الثَّوريَّةِ التي أَوصلت طبقةَ العساكرِ إلى دَفَّةِ الحُكمِ والسُّلطةِ. فمنْ آَثارِ هذا الفكرِ انحصارُ الرأيَ السياسي في حزبٍ واحدٍ يُشَكِّلُه حكامُ البلاد، وممارسةُ الدِكتاتوريَّة تجاهَ الشُّعوبِ المغلوبةِ على أمرها. كما تبدو آثارُ هذا الفكرِ في النِّظامِ الاشتراكي الذي أخذَه حُكامَ البلاد كنظامٍ للحياةِ، بالإضافةِ إلى تَأَثُّرِها بالجانبِ الفكريِ العقائديِ الذي سَيطرَّ على وسائلِ الإعلامِ المُختلفة، كالصُّحفِ والمجلاَّتِ والكتبِ المنشورةِ، دونَ أنْ يكونَ ذلكَ باسمِ الشيوعيَّةِ أو تحتَ عنوانِها. وهي تَهدفُ من وراءِ ذلك خداعَ الشُّعوبِ، وترويجُ الإلحادِ في أوساطِها دونَ أنْ تَشْعرَ بِه، خاصةً وهي شعوبٌ جاهلةٌ لا تَعرِفَ عن الإسلامِ إلاَّ النَّذرَ اليسيرَ وبصورةٍ مشوَّهةٍ مطموسَةٍ. وأخيرًا فتبدو آثارُ الفكرِ السياسي الاشتراكي في السياسَةِ الخارجيَّةِ التي تَنْتَهجُهَا الدُّولُ المتأثرةُ بهذا الفكرِ، حيثُ أَصبحت تَهتَمُّ بنفسِ القضايا السياسيِّةِ التي تَهتَمُّ بها دولُ المُعسكرِ الشيوعي، ويظهرُ ذلك في اهتمامِ بعضِ الدُّول العربيَّةِ والإسلاميَّةِ بقضيَّةِ فيتنام سابقًا، وتأييدِها للاتحاد السوفيتي في غزوِه لأفغانستان المُسلمَةِ، ووقوفُها إلى جانبِ السِياسَةِ السُوفِيتيَّةِ في المحافلِ والمؤتمراتِ الدولِيَّةِ.[2]

ولقد راجَت في العالمِ الإسلامي كثيرٌ من المُصْطَلحاتِ والتَّعابيرِ والشِّعاراتِ التي اخترَعتهَا الحضارةُ الأوربيِّةُ بقسمَيْهَا الغربيِّ الرأسماليِّ والشرقيِ الشُيوعيِّ، ومن هذه التعابير: الثَّورةُ، والثَّورةُ المضادةُ، والدَّفعُ الثَّوري، والتَّقَدُمِيَّةُ والرَّجعيَّةُ، والإمبريَالِيَّةُ واليساريَّةُ، الجبهةُ التَّقدميَّة، والجبهةُ الوطنيَّةُ، الليبراليةُ، وطبقةُ الكادحين، والبرجوازيةُ، والإرستقراطيَّةُ، وغيرَ ذلك

---

[1]– انظر الاتجاهاته الوطنية في الأدب المعاصر 299/1، 295.

[2]– انظر العوامل التي تنحرُ في الكيان الإسلامي، من مقال للدكتور محمد المبارك بعنوان "سلطان الثقافة الغربية على الفكر الإسلامي" ص 141، 142، 143، ولقد أيَّدَت كلٌ من سوريا واليمن الجنوبى وأثيوبيا وليبيا روسيا الشيوعية في غزوِها واحتلالِها لدولة أفغانستان.

من التَّعابيرِ والمُصطلحاتِ الجوفَاءِ، التي ردَّدَها الببغاويون في عالمِنَا الإسلاميِّ.[1] ومن هذهِ الشِّعارات: وحدة –حرية– اشتراكية، الحرية– الإخاء– المساواة، وهى شعاراتٌ صنَعهَا اليهودُ والماسونُ الذين يُجيدونَ فنَّ الضَّحكِ على الشُّعوبِ المُسلِمةِ، وقد رفعتها في العالم المربي الأحزاب والجماعات المميلة ، والحكام الماجورون من قبل الاستعمار الصليبي والشيوعى.[2]

رابعًا : آثارُ الحضارةِ المُعاصرةِ في النَّواحي الاقتصاديَّةَ:

من المعلومِ أنَّ النِّظَامَ الاقتصادِيَّ الرأسماليَّ السائدَ في أمريكا وأوروبا الغربيَّةِ يقومُ على مبادئ ثلاثةٍ، هي:–

1– الفائدة الرِّبَويَّةُ.

2– الحريَّةُ المُطلقةُ في المجالِ الاقتصادي.

3– الضرائبُ غيرُ المباشرةِ التي تقعُ غالبًا على أقواتِ الشَّعبِ الضُروريَّةِ. وقد أخذت أوروبا الغربيَّةُ بالنِّظام الرأسماليَّ نتيجةَ ردِّ فعلِ النِّظامَ الإقطاعي السَّيءِ الذي كان سائدًا فيها من قَبلْ. وأمَّا في أوروبا الشَّرقيَّةِ، فكان يسودُ النِّظامُ الشيوعيُ الذي يقومُ على التَّأميمِ المُطلقِ، وسلبِ حُريَّةِ الفرد في التَّملُّكِ، وملكيَّةِ الدولةِ لكافة المشاريع الزراعية والصناعية والتجارية، وسواءٌ نظرنَا إلى الدُّولِ الآخذةِ بالنظام الرأسمالي. أو الآخذةُ بالنِّظامِ الشيوعي فإنَّا نجدُ المادةَ هي كل شيءٍ في حياةِ الفردِ. يقولُ د. محمد أَسد: "إنَّ الأوربيَّ الماديَّ، سواءٌ عليه كان ديمقراطيًا أم فاشيًا رأسماليًا أم بلشفيًا، صانعًا أم مفكرًا، يعرفَ دينًا إيجابيًا واحدًا هو التَّعبدُ للرقيِّ الماديِّ، أي الاعتقادُ بأنَّه ليسَ في الحياةِ هدفٌ آخرَ سِوى جعلِ هذهِ الحياةِ نفسِها أيسرَ فأيسرَ، أو كما يقولُ التَّعبيرُ الدارجُ: "طليقةٌ من ظلمِ الطَّبيعةِ". إنَّ هياكلَ هذه الديانّةِ إنَّما هي المصانعُ العظيمةُ ودورُ السِّينَمَا والمختبراتُ الكيماويَّةُ، وباحاتُ الرَّقصِ، وأماكنُ توليدِ الكَهرَباءِ، وأمَّا كهنةُ هذه الديانةِ فهم: الصَّيارفةُ والمهندسونَ، وكواكبُ السِّينما، وقادةُ الصِّناعاتِ، وأبطالُ الطيران". ويقولُ أيضًا: "أمَّا على الجانبِ الثَّقافِي فنتيجةُ ذلك خلقُ نوعٍ بشريٍ متحضرٍ، فلسفتُه الأخلاقيَّةِ في مسائلِ الفائدةِ العمليَّةِ، ويكونُ أسمى فارقٍ لديهِ بينَ الخيرِ والشرِ إنَّما هو التَّقدُّمٌ الماديُّ.[3]

ويقولُ المودوديُّ: "فالفلسفةُ الخُلقيَّةُ التي ازدهرَت في جوٍ من الإنحلالِ الدِّيني وجحودِ الآخرةِ، وراجَت رواجَها في حقيقةِ الأمرِ في حياةِ أهلِ الغربِ فعَلا إنَّما كانت فلسفةُ النفعيَّةِ

---

[1]– انظر المصدر السابق ص 134، 135، يقول الدكتور محمد المبارك: وهذه التَّعابيرُ ذو مدلولٍ ماركسيٍ، استلتها الشيوعية لمصلحتها، رغمَ ما فيها من انحرافٍ عن المنطقِ العلمِي السَّليمِ.

[2]– انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 186–187.

[3]– الاسلام على مفترق الطرق ص 47–49.

المَحضةِ، التي امتزَجَت بها نزعةٌ ماديَّةٌ بسيطةٌ من فلسفةِ اللَّذةِ، فعلى هذهِ الفلسفةِ أُسِّسَ بناءُ المدنيَّةِ والحضارةِ في الغرب".[1]

ولقد تَأَثَّرَ العالمُ الإسلاميُّ بالحضارةِ المعاصرةِ – بشقيها الغربي الرأسمالى والشرقي الشيوعي في النَّواحي الاقتصادية، وبَالنِّسبة للبلدانِ الإسلاميَّةِ التي تأَثَّرت بالنِّظامِ الاشتراكى نجدُ آثارَ هذا النِّظامِ في تَطبيقِ التَّأميمِ للمشاريعِ الصناعيَّةِ والزراعيَّةِ الكُبرى، وفي تطبيقِ مبدىء تحديدِ ملكيَّةِ الأرضِ،[2] كما جرى في مصرَ زمنِ الحكمِ النَّاصِرِّي الدِيكتاتوريِّ، وكذلك نجدُ آثارَ هذا النِّظامِ في سيطرةِ بعضِ حكوماتِ هذه البلادِ على المَوادِ الغِذَائيَّةِ والحاجاتِ الضَّروريَّة، وبيعِها للشَّعبِ ببطاقاتٍ خاصةٍ معدَّةٍ لهذا الغرضِ، ممَّا جعلَ الجماهيرَ تحتَ رحمةِ الحاكمِ الذي يُهَدِّدُهم بلقمةِ العيشِ.

إنَّ تحديدَ ملكيَّةِ الأرضِ، وتأميمَ المشاريعِ الزراعيَّةِ والصناعيَّةِ أمرٌ لا يُقرُّهُ الإسلامُ الذي أباحَ للفردِ أنْ يمتلكَ ما يشاءُ وفقَ حدودٍ شرعيَّةٍ معينةٍ. ولا فَرْقَ في ذلك بينَ وسائلِ الإنتاجِ أو الأدواتِ الاستهلاكيَّةِ. فالفردُ له أنْ يمتلِكَ الأراضيَّ والدورَ والآلاتِ والمصانعَ والملابسَ والأوانيَ، وأثاثَ البيتِ بشرطِ أنْ يمتلكَها بالطُّرقِ المُشروعةِ، ويؤدِي ما فرضَ اللهُ تعالى عليهَ من حُقُوقِهَا.[3]

وبِالنِّسبةِ للبلدانِ الإسلاميَّةِ التي تَأَثَّرت بالنَّظامِ الرأسمَالِي الغربي نجدُ آثارَ هذا النِّظام في إقامةِ هذه البلدانِ للمؤَسِّساتِ والمَصارفِ الربَويَّةِ، فانتشرت البنوكُ والمؤسَّساتُ الزراعيَّةُ والصناعيَّةُ والتجاريَّةُ التي تقرضُ المواطنين بالفائدةِ المُحدَّدَةِ سلفًا. كما نجدُها في أخذِ هذهِ البلادِ بمبدأ الحُريَّةِ المُطلقةِ في المجالِ الاقتصاديِ ممَّا فتحَ المجالَ لاكتسابِ المالِ، والحرصِ على جمعهِ بالطُّرقِ المُحرَّمةِ شرعًا. فأَثْرَى كثيرٌ من المسلمين عن طريقِ الرَّشوةِ والرِّبا والاحتكارِ والقمارِ والمَيْسِرِ (اليانصيب الخيري)، والغناءِ والرَّقْصِ، وتجارةِ الخُمورِ والمُخدِّراتِ، ومن وراءِ حِرفَةِ البِغاءِ والملاهي اللَّيليَّةِ، ودورِ العَربدَةِ والمُجونِ.[4]

يقولُ المودوديُّ: "وكذلك فَرضُوا علينا نِظَامَهم الاقتصاديَّ مع فلسفتِهم ونظريَّاتِهم الاقتصاديَّةِ، حتَّى لمْ تَعُدْ أبوابُ الرزقِ لَتُفتَح إلاَّ لمَنْ يختارُ مبادئَ هذا النِّظامِ الاقتصادي. فهذا ممَّا جعلنَا آكلينَ للسُّحتِ أولا ، ثمَّ محَا من أذهانِنا ما كان فيها من تَمييزٍ بين الحلالِ والحرامِ، حتَّى بلغَ بنَا الأمرُ أنَّه لمْ يَعُدْ كثيرٌ منَّا يُسَلِّمَون بتعاليم الإسلام....". [5]

وكمَا أثَّرَت الحضارةُ الغربيَّةُ الماديَّةُ في أفرادِ المسلمين أَثَّرَت كذلك في حكوماتِهم، حيثُ انتصرت مشاريعُها على ترفيهِ الشُّعوبِ ورفعِ مستوى حياتِها ماديًا، في الوقت التي أهملت

---

[1]– انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 171.

[2]– انظر العوامل التي تنحر في الكيان الإسلامي ص 192.

[3]– انظر مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة للمودودي ص 111.

[4]– انظر العوامل التي تنحر في الكيان الإسلامي ص 144.

[5]– موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 176.

فيه الجانبَ الرُّوحيَّ من الحياة. وممَّا يدلُّ على ذلك ملايين الأموالِ التي تُهدَرُ في إقامَةِ الملاهي والمُنتديات والمُتنزهاتِ المُختلَطةِ، ودورِ السينَما، والمسارحِ والملاعبِ الرياضيَّةِ، مقابلِ الضَّئيلِ الذي يُنفقُ على توعيَةِ الأمَّةِ وتحسينِ مُستوَاهَا التَّعليميَّ. يقولُ الأستاذُ أبو الحسنِ النَّدويِّ: "وحَسبُ القارئِ أنْ يقرأَ خُطَبَ هؤلاءِ الزُّعماءِ والقادةِ السياسيين، وما يكتبونَ بين آونَةٍ وأُخرَى، وما يُدلونَ به مِن تَصريحاتٍ، وما يَتَخِّذونَه من إجراءاتٍ رسميَّةٍ، وخطواتٍ عمليَّةٍ، وما يعاملونُ بِه الأحزابَ التي تفَكِّرُ غيرَ هذا التَّفكِيرِ، وتسيرُ غيرَ هذه المَسيرَةِ، وتنتَقِدُ هذه الاتَّجاهاتِ، وحَسْبُهُ أنْ يقرأَ مشاريعَ الحكومةِ والخططَ المُستهدَفَةِ ومجالاتِ النَّشاطِ والحركةِ، والحماسةِ في الدَّوائرِ الرَّسميَّةِ، يَراها مقتصرةً على تَرفيهِ البِلادِ وتقويَتِها ماديًا، ورفعِ مستوَى الحياةِ، ومجاراةِ الشُّعوبِ التي لا تَعرِفُ غيرَ التَّقدمِ الماديِّ والرفاهيَةِ الدُنَيوِيَةِ هدفًا وغرضًا.[1]

إنَّ معظمَ البلدانِ الإسلاميَّةِ اليومَ عالةٌ على الغربِ في النَّواحي الاقتصاديَّةِ، وكأنَّ هذه البلدانِ مستعبدةً للغربِ لا تستطيعُ أنْ تَستَغنِيَ عنه في المواد الغذائية.[2] وكذا لا تستغني عنه في الملابسِ والآلاتِ، والأسلحةِ والمُعدَّاتِ الصناعيَّةِ والأدويةِ، كما أصبحت بلادُ المسلمين سوقًا رائجةً لِمُختلَفِ البضائعِ والمنتوجات الأوربيَّةِ والأمريكيَّةِ واليابانيَّةِ.[3] وإنَّ انعدامَ هذه البضائعِ والمنتوجاتِ من الأسواقِ الإسلاميَّةِ يُسَبِّبُ أزمةً خطيرةً للمسلمين، الذين اعتمدوا عليها في حياتِهِم.

خامساً: آثارُ الحضارةِ المعاصرةِ في الحكمِ والتَّشريعِ:

لقد واجهت الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ في أواخرِ القرنِ التاسِع عشرَ وأوائلِ القرنِ العشرين حملةً ضاريةً من التَّشكيكِ في صلاحيتِها للتطبيقِ ومسايرتِها للحياةِ العصريَّةِ، فاتُّهِمَت من قبلِ خصومِ الإسلام وأبنائِه – الذين ربَّاهُم هؤلاء الخصومِ– بالجمودِ والتَّعصُبِ، واتُهِمَت الحدودُ والعقوباتُ الشرعيَّةُ بالهَمَجِيَّةِ والوَحشِيَّةِ.[4] وعندما وقعَ العالمُ الإسلامي تحتَ السَّيطرةِ الأُوربيَّةِ قامَ المُستعمرُ الدَّخيلُ بنقلِ حضارتِه وما أفرَزتهُ من نَظرَّياتٍ وأفكارَ إلى هذا العالم، ومِنْ ضِمنِ النَّظريَّاتِ التي وُجِدَ لها صدَىً في العالمِ الإسلاميِّ النَّظريَّةُ الغربيِّةُ التي تُنَادي بفصلِ الدِّينِ عن الدَّولةِ وانفصالِه عن مجالاتِ الحياةِ. ولكَي يُحَقِّقَ الغربُ مخطَّطَاتِه التي تَستهدِفُ القضاءَ على الإسلامِ عقيدةً وشريعةً قام بإنشاءِ كُلِيَّاتِ الحقوقِ في كثيرٍ من ديارِ

---

[1]– الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوي، الطبعة الثانية، ص 225– 226.

[2]– إنَّ كثيرًا من الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ تعيشُ على القمحِ والأرز والدقيقِ المستوردِ من أمريكا وأستراليا وأوروبا الغربية.

[3]– انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 312–312.

[4]– انظر نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور والقانون للمودودي 135، 136، 177، 178، 180،181.

الإسلامِ، تلكَ الكُلِّيَّاتُ التي تُدَرَّسُ فيها القوانينُ الوضعيَّةُ الأوربيَّةُ، وبصورةٍ تمَجِّدُ شأنَها وتعليَ من مكانتِها، وفي نفسِ الوقتِ تَحُطُّ من قَدَرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وسُمُوِّ تعاليمِها، التي تعالجُ كلَّ جوانبِ الحياةِ، فأُنشِئَت في مصرَ والسودانِ وسوريا والعراقِ كلياتٌ للحقوقِ على نهجِ كُلِّيَّاتِ الحقوقِ الفِرنسيَّةِ والإنجليزيَّةِ.[1] كما قامَ الاستعمارُ الأوربيُّ بإلغاءِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وإحلالِ قوانينِه الوضعيَّةِ بدلاً منها، وذلكَ في البلادِ التي وقعَتْ تحتَ سيطرتِه واحتلالِه البَغِيضِ. وتَعتَبَرُ الهندُ وتركيَّا ومصرُ من أوَّلِ البلادِ الإسلاميَّةِ التي نَفَذَ فيها الاستعمارُ الغربيُّ بعضَ مخطَّطَاتِه في القضاءِ على الإسلامِ.

فعن الهندِ يقولُ المودوديُّ: "إنَّ أوَّلَ قُطرٍ بدأَ فيه إلغاءُ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ هو الهندُ، وبيانُ ذلكَ أنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ هي التي كانت قانونَ الدَّولةِ العامِ في الهندِ حتَّى بعدَ أنْ قامَ فيها الحكمُ الإنجليزيُ، فكانت يدُ السَّارقِ مثلاً تُقْطُعُ فيها إلى سنة 1791م، ولكنَّ الإنجليزَ أخذوا بعدَ ذلكَ يُلغونَ القانونَ الإسلاميَّ آنًا بعدَ آنٍ، ويستبدِلون به القوانينَ الوَضعيَّةَ، حتَّى تمَّ إلغاءهُ في أَواسطِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ، ولم يُبقِ منهِ تحتَ النَّفاذِ إلاَّ ما كان يتعلقُ بمسائلِ النِّكاحِ والطلاقِ، وغيرهما على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية.[2]

وفي مصرَا استطاعُ الفرنسيون إلغاءَ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ عن طريقِ ربيبِهم الخديو إسماعيل الذي ما وُضِعَ على دَفَّةِ الحكمِ فيها إلاَّ من أجلِ هذا العملِ، يقولُ محمدٌ طلعت حرب[3]: "إنَّ إسماعيلَ لمَّا أرادَ أنْ ينفصلَ بمصرَ عن الدَّولةِ العُثمانيَّةِ، وعدَ ملوكَ أوروبَّا أنْ يؤيدونَه من أجلِ تحقيقِ هدفِه، أنْ يبدلَّ أحكامَ القرآنِ الكريمِ فيمَا يتصلَ بالحياةِ السِياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ، ويفصلُ السِّياسَةَ عن الدِّينِ، ويُطْلَقَ الحريَّةَ للنِّساءِ، بحيثُ يَسِرْنَ في أَثَرِ المرأةِ العربيَّةِ، وينقلَ مصرَ إلى معالمِ المدَنيَّةِ الأوربيَّةِ".[4]

وفعلاً نَفَّذَ الخديو إسماعيلُ المؤامرةَ بالتَّعاونِ مع الاستعمار الأوربي، فأُنشِئت في مصرَ المحاكمُ القَنصليَّةُ التي تَتَبَعُ قنصليَّاتِ الدُّولِ الغربيَّةِ، ومُهِمَّةُ هذه المحاكمِ الفصلَ في القضايا التي يَرفَعُها رَعايَا هذه الدُّولِ على المواطنين المَصريِّين، والحكمَ في الجرائمِ التي يرفعُها رَعايَا هذه الدُّولِ ضدَّ المواطنين المصريين. وقد طَبَّقت المحاكمُ القُنصُلِيَّةُ القانونُ الساريِ في بلدِ

---

[1]– انظر العوامل التي تنحر في الكيان الإسلامي د. محمد المبارك ص 145.

[2]– انظر نظرية الاسلام وهديه هامش ص 138، 139، وانظر حول هذا المعنى ص 195 من نفس المصدر، وانظر أيضا الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 204.

[3]– محمد طلعت حرب، كاتب وباحث، ورجل اقتصادي مشهور، ولد عام 1876م، درسَ في مدرسة الحقوق، وتخرَّجَ منها عام 1889م، أنشأ بنك مصر عام 1920م. من مؤلفاته: تربية المرأة والحجاب، وفصل الخطاب في المرأة والحِجاب، والكتابات في الرد على قاسم أمين، مؤلف كتاب "تحرير المرأة"، وعلاج مصر الاقتصادي، توفي عام 1941م. انظر الأعلام: الزركلى 45/7.

[4]– الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: د. عبد الستار السعيد، طبعة 2، 1399هـ، ص 52–53.

كلِّ قُنصِليَّةٍ. واذا أُريدَ الإستئنافُ ضِدَّ الأحكامِ الصادرةِ من هذه المحاكمِ فلا يُسمحُ بِه إلاَّ أمامَ محاكمِ الإستئناف في الدُولَةِ الأوربيَّةِ التَّابعِ لها القاضي القُنصِلِي، وهكذا تَمَّت الخُطوةُ الأولى في القضاءِ على الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ. وتلتهَا الخطوةُ الثَّانيَّةُ بإنشاءِ المحاكمِ المُختلَطَةِ بدلاً من المحاكمِ القُنصَلِيَّةِ، وقد أنشأَها الخديو إسماعيلُ بناءً على إستشارةٍ من وزيره النَّصراني الأرمني "نوبار"، وسُمِّيَت بالمُختلَطَةِ نظرًا لكونِ قُضاتِها من المصريين والأجانب، والقانون التي تحكمُ بِه هذه المحاكمُ عبارةٌ عن تشريعاتٍ فرنسيَّةٍ حرَّرَها عن القانونِ الفرنسي المحامِيُّ الفرنسيُّ "مونوراي"، ثمَّ جاءَت الخُطوةُ الثَّالثَةُ عندما احتلَّ الإنجليزُ مصرَ عام 1882م، حيث أنشأوا فيها المحاكمَ الأهليَّةَ التي صدرت قوانينُها عام 1883م مأخوذةً من القوانينِ الفِرنسيَّةِ السَّائدةِ في المحاكمِ المُختلَطَةِ.[1]

وهكذا أصبحَ الشَّعبُ المسلمُ في مصرَ يَحتَكِمُ إلى القوانينِ الأُوربيَّةِ –اللهمَّ– ماعدَا ما تُرِكَ في حوزةِ المحاكمِ الشَّرعيَّةِ حولَ القَضَايَا التي تَتَعلقُ بالأحوالِ الشَّخصيَّةِ، كقَضَايَا الزواجِ والطَّلاقِ والإرثِ، ونحوِها.

وأمَّا في تُركيا: ففي زمنِ السُلطانِ محمود أُدخلت عدَّةَ قوانينَ أوربيةٍ وضعيَّةٍ، منها القانونُ التَّجاري، ثمَّ عَمِلَ الاستعمارُ الصَّليبي بالتَّعاونِ مع اليَهودِيَّةِ العالميَّةِ على القضاءِ على الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ في تركيا، حيثُ حانَت الفُرصةُ عندَما وجدوا عميلَهم مصطفى كمال أتاتورك الزعيم المصطنع لديهِ الاستعدادِ أنْ يقومَ بهذا الدَّورِ البشعِ. فعقدَ معَه الخلفاءُ الاتفاقيَّةَ المعروفةَ باتفاقيَّةِ "كيرزن" والتي تَنُصُّ شروُطها الأربعةُ على ما يلي:–

1– إلغاءُ الخلافةِ الإسلاميَّة نهائيًا من تركيا.

2– أنْ تقطعَ تُركيا كلَّ صلةٍ لهَا بالإسلامِ.

3– أنْ تَضمنَ تُركيا تجميدَ وشلَّ حركةِ جميعِ العناصرِ الإسلاميَّةِ الباقيةِ في تركيا.

4– أنْ يُستبَدَلُ الدُّستورُ العثمانيُّ القائمُ على الإسلامِ بدستورٍ مدنَيٍ بَحَتْ.[2]

وفعلاً نَفَّذَ أتاتوركُ شروطَ هذهِ الاتفاقيَّةِ، فألغى الخلافةَ الإسلاميَّةَ، وأَعلنَ أنَّ تركيا دولةٌ علمانيةٌ، واستُبدِلَت الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ بالقوانينِ الوَضعيَّةِ الإيطاليِّةِ والسويسريةِ والفرنسيةِ، وحرَّفَ أحكامَ القرآنِ الكريمِ المُتَعلِّقةِ بالزواجِ والطَّلاقِ والإرثِ، ومنعَ الأذانَ بالعربيَّةِ، وأجبرَ الشَّعبَ التُركيِّ على إرتداءِ الملابسِ الأوربيَّةِ، وخلعِ الملابسِ التي لهَا صلةٌ بتاريخِه الإسلاميِّ العريقِ، واستبدلَ الحروفَ العربيَّة بالحروفِ اللاتينية، وهدَمَ الكثيرَ من المساجِدِ.[3]

---

[1]– الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص 52–57.

[2]– انظر بنود الاتفاقية في كتاب "المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام" للشيخ محمد محمود الصواف طبعة عام 1389هـ ص 174.

[3]– انظر الإسلام في الغرب: جان بول رو ص 181، ونظرية الإسلام وهديه للمودودي، هامش ص 139.

ولم يقفُ أمرُ الغزوِ الحضاريِ الغربيِ في مجالِ الحكمِ والتَّشريعِ على الهند ومصر وتركيا، بل تعدَّاه إلى كلِّ دولةٍ بُلِيَت بالاستعمارِ الغَربِي، أو بُلِيتْ بِالحُكَّامِ الذين تَرَبَوْا في أَحضانَ هذا الاستعمار، يقول "لورنس براون" في كتابِه "مستقبل الإسلام": "ألغينَا قانونَ الإسلامِ الجنائيِّ والأهليِّ في الهند، علمًا منَّا بأنَّه يَرجِعُ إلى العهدِ العتيقِ، ولا يُسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ في هذا العصرِ، وأَبقينَا على قانونِهم الشَّخصِي فَحسب، كان ذلك قدْ أساءَ للمسلمين وآلَمَهم، لأنَّ منزلةَ المسلمينِ بذلك أَصبحت تماثلُ منزلةَ أهلِ الذِّمةِ في الحكوماتِ الإسلاميَّةِ منذُ قرون. لكنَّ الجوَّ قد تبدَّلَ، والأحوالَ قد تَغيَّرَت، فلم يقتصرْ على أنَّ مسلِمِي الهندِ قد رَضِيَت أَنفُسُهم هذا القانونَ، بل تعدَّى الأمرُ إلى أنَّ الحكوماتِ المسلمةَ قدْ اقتَفَت آثارَها في هذا الطَّريقِ. ومنَها مَا أَدخلتْ – كتركيا وألمانيا– من تعديلاتٍ حَسنَةٍ في قوانينِ الزَّواجِ والطَّلاقِ والإرث، ممَّا جعلَ قوانينَها تبلغُ مستوَى قوانِينَا وتُنَافِسُها.[1]

ويقول الدكتور محمود مصطفى: "كان قانونُ العقوباتِ الفَرَنسي الذي صدر عام 1810م حدثًا في تاريخِ القانونِ الجِنائي نموذجًا في عهده، نقلت عنه دولٌ كثيرةٌ في داخلِ أوروبا وخارجِها، ورغبت تُركيًا في كسب سياسى بالتقريبِ بينَ نظامِها والنُّظمِ الأوربيَّةِ الحَديثَةِ، فأَصدَرَت قانونَ – الجزاء العثماني– عام 1808م، مُستَمِدةً أحكامَه من القانونِ الفرنْسي، وبصدورِ هذا القانونِ انتهى عصرُ تَطبيقِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ في كثيرٍ من الأقطارِ العربيَّةِ، حيثُ طُبِّقَّ عليها بحكمِ تِبعيَّتِها لتركيا، وهو ما حُصُلَ في سوريا ولبنان، والعراقِ وفلسطين، وقدْ ظلَّ قانونُ الجزاءِ العثماني مُطبَقًا في هذهِ الأقطارِ إلى أنْ صدَرَت قوانينُها الخَاصَّةُ في القرنِ العشرين".[2]

وفي باكستانَ وبورما وسيلان والملايو وسنغافوره وعدن ودولِ الخليج العربي فقد طُبِّقَّ القانونُ الجنائيُّ المأخوذُ عن القانونِ الهنديِّ، الذي وُضِعَت أَحكامُه نقلاً عن القانونِ الفرنسيِّ والتَّشريعِ الإنجليزيِّ وقانون "لويزيانا". وفي تونس صدر قانون العقوبات سنة 1913م بعنوانِ "المجلَّةُ الجِنَائِيَّةُ"، وقد أُخِذَت نُصوصُه من قوانين فرنسا وإيطاليا وتركيًّا ومصرَ.[3] ولم تسلمْ الأحكامُ الشَّرعيَّةُ المُتعلقةُ بالأحوالِ الشَّخصيَّةِ من عَبَثَ حكام تونس، يقول "جان بول رو" أعلن السيِّدُ بورقيبة عدَّةَ قراراتٍ، هي بمثابةِ ثورةٍ اجتماعيَّةٍ عديدةٍ (10 آب 1956م)، وكانَ المقصودُ بهذِهِ الثَّورةِ مَنْعِ تَعَدُّدِ الزَّوجاتِ، وجَعْلِ السِّنِ الدُنيا لزواجِ الفتاةِ الخامسة عشرة، ثمَّ تحريرِ المواطنين والمواطنات الذين تخطَّوْا العشرينات من عمرِهم من موافقةِ الوالدينِ إذا ما أرادوا عقدَ الزَّواجِ، وفي نفسِ الوقتِ أعلنَ السيدُ بورقيبة بأنَّ الطلاقّ لابدَّ أنْ يَخضَعَ

---

[1]– نقلا عن شهادة الحق للمودودي ص 21.

[2]– أصول قانون العقوبات في الدولِ العربيةِ ص 9–10، نقلاً عن الغزوِ الفِكرِيِّ والتيَّاراتِ المُعادِيةِ للإسلام: د. عبد الستار السعيد ص 48–49.

[3]– الغزو الفِكرِي والتيَّاراتِ المُعادِيةِ للإسلام: د. عبد الستار السعيد ص 118–120.

للمَحَاكِمِ...."[1] وذَكَرَتْ صَحيفةُ "لوموند" الفِرنسيَّةِ في عدَدِهَا الصَّادرِ يوم 21 يناير 1908م ما يلي: "لقد وضَعَ السَّيدُ الحبيبُ بورقيبة حدًا لتَعَدُّدِ الزَّوجاتِ والطلاقِ الانفرادى، وللإستبدادِ الزَّوجى، وجعلِ قَبولَ الزَّوجينِ معًا إجباريًا، هذا التحريرُ العائليُّ يتضاعَفُ بتحريرٍ سياسيٍ واجتماعيٍ.[2]

وفي لبنان صدرَ القانونُ الجِنَائِيُّ المأخوذُ من القانونِ الإيطالي والسويسري، وعن القانون اللبناني أَخذَت الأردنُ وسوريَا قانونَ بَلَديهِمَا الجِنائيِّ.[3] وفي ألبانيَا المُسلمةِ أُلْغِيَت الشَّرِيعةُ الإسلاميَّةُ، وأَصبحت أَلبانيا دولةً لادينيةً، حيثُ وُضِعت لها القوانينُ المستمدَّةُ من القوانينِ الإيطاليةِ والسِّويسريَّةِ والفرنسيَّةِ، حتَّى أنَّ حكَّامَها أَجرَوْا تَعدِيلاتٍ على أحكامِ الأحوالِ الشخصيَّةِ، شأنُهم في ذلك حُكَّامُ تركيا وتونس.[4]

ولم يسلَم من الهجَمِةَ الاستعماريَّةِ المسلمونَ البربرُ من سُكَّانِ المغربِ العربيِّ، الذين كانوا يَحتكِمونَ إلى الشَّريعةِ الإسلاميةِ، حيثُ قامَ الاستعمارُ الفِرنسيُّ سنة 1930م بوضعِ القانونِ المُسَمَّى "الظهير البربري" بهدفِ عزلِ هؤلاءِ المسلمين عن شريعتِهم الإسلامية.[5]

وهكذا استطاع الغرب الاستعماري أن يحقق ايه في ابعاد الاسلام عن ناصية الحكم والتشريع في العالم الاسلام، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: "لينقنن الاسلام عروة عروة، فكلما انتقن ست بروميتشبت الناس بالستى تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة".[6]

ولقد تركتْ القوانينُ الوضعيَّةُ آثارَها السيِّئةَ في المجتمعات الإسلاميَّةِ، ذلك أنَّ هذه القوانينَ إنَّما وُضِعَت على أساسِ تصورِ الغربِ للحياةِ والكونِ والانسان. وعلى أَساسٍ من الأخلاقِ والقيمِ الغربيَّةِ، وقد سبق معنا أنَّ العالمَ الغربِيَّ يعيشُ حالةً من الضَّياعِ والاضطرابِ والفوضى في كلِّ شيءٍ، إذ سرَت الماديِّةُ والإلحادُ إلى أخلاقِه وعلومِه وآدابِه وفنونِه، ولمْ يَعُدْ يَقَدِّسُ إلاَّ المادةَ، ولم يعرفْ خلقًا إلاَّ المصلحةَ الماديَّةَ والمصلحةَ الشَّخصيَّةَ، لذلك كلُّه جاءت قوانينُه غريبةٌ عن المجتمعات الإسلامية، بعيدةُ الصِّلةِ عنها، فهي قوانينُ من تربةٍ غيرَ تُربَتِها، ومن بيئةٍ غيرَ بيئتِها، ومن أوضاعٍ تدعو إلى الكفرِ والإلحاد وإنَّها لا تنتسبُ

---

[1]– الإسلام في الغرب ص 189.

[2]– نقلاً عن الصراعِ بين الفكرةِ الإسلاميَّةِ والفكرةِ الغربيةِ للندوي ط 2، ص 158 ،159.

[3]– الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص 120.

[4]– انظر نظرية الإسلام وهديه هامش ص 139.

[5]– انظر المستقبل لهذا الدين، دار الشروق، ص 113، وانظر الغزو الفكري والتيارات المادية ص 120.

[6]– الحديث رواه الصحابي الجليل أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه، وأخرَجَه الإمام أحمد في المسند 251/5.

إلى الإسلامِ بِنَسَبٍ، ولا تمتُّ إلى البِّلادِ الإسلاميَّةِ بسببٍ، إنَّها قوانينٌ قامت على أصولِ غيرَ أُصولِنا الإسلاميَّةِ، وانبثَقَتْ عن أَنظمةٍ تدعو إلى الإبَاحيَّةِ والتَّحلُلِ والفسقِ والفُجورِ، وهي قوانينٌ تَسخَرُ من عقائدِ المسلمين، وتمتَهِنُ مشاعرَهم، وتَسلُبُهم حقوقَهم، وتحولُ بينَهم وبينَ واجباتِهم الشَّرعيَّةِ، وتعملُ على إفسادِ أَخلاقِهم.

ويذكرُ لنَا المودوديُّ آثارَ القانونِ الوضعيِّ وآثارَ تعليمِه في المجتمعِ الإسلاميِّ الهنديِّ، فيقولُ: "فلمَّا نَسخَ حكَّامُنا الإنجليزُ ما كان رائجًا جاريًا في بلادِنا من القوانينِ الشَّرعيَّةِ، ونفَّذوا مكانَها قوانينَهم الجديدةَ، فلم يكن مَعنَى ذلك أنَّه وَضَعَ قانونًا وحلَّ مَحلَّهُ قانونًا آخرِ فَحَسْب، بل كانَ معنَى ذلكَ أنَّه قدْ اقتلَعَ من أَرْضِ هذه البِلادِ نِظامَ الأخلاقِ والمدَنِيَّةِ، وأَسَّسَ مكانَه نظامًا آخرَ للأَخلاقِ والمَدنيَّةِ، ثمَّ أَجرَى الإنجليزُ فى كليَّاتِ حُقُوقِهِم تَعلِيمَهُم القانونِيِّ ليَحكُمُوا هذا التَّغيرَ الذي جاوءا بِه في الأخلاقِ والمدنيَّةِ. فذلك التَّعليمُ هو الذي خَيَّلَ إلى شبابِنَا وألقَى في رَوْعِهِم أنَّ القانونَ الفارطَ (أي أحكام الشريعة الإسلامية) كان قانونًا باليًا أكلَ عليه الدَّهرُ وشِربَ، ولا يمكنُ أنْ يُسَايرَ مجتمعًا في الزَّمنِ الحاضرِ، أنَّ هذا الطِّرازَ الجديدَ لوضعِ القانون بكلِّ ما فيه من المبادئ والنَّظريات هو أصوبُ منه، وأكثرُ ملائمةٍ لعهدِ الرُقِيِّ الجديدِ، ثمَّ لمْ يقفُ الأمرُ عندَ هذا الحدِّ فحَسب، بل قدْ زَعزَّعَ الإنجليزُ عقيدتَنَا الأساسيَّةَ القائلةَ بأنَّ حقَّ التشريعِ مختصٌ باللهِ وحدَه، وألقَوْا في روعِ النَّاسِ أنْ لا علاقةَ لَهُ بهذا الشأنِ، بل الأمرُ كلُّه يرجعُ إلى المجلسِ التَّشريعيِ، يجعلُ ما يشاءُ فرضًا أو واجبًا أو حلالاً أو حرامًا أو جريمةً. وحسبُكم شاهدًا على مبلغِ تأثيرِ هذه القوانينِ الجديدةِ في أَخلاقِنا ومدنيِّتنِا أنَّها هي التي أَحلَّت الزِّنا والخمرَ والميسرَ وكثيرًا من البُيوعِ الفاسدةِ، وراجت تحتَ كنفِها أنواعُ المُنكراتِ والمعاصي في هذه البلادِ، وحرمت من حمايتها، وظلَّت تنقرضُ وتنمحي كثيرٌ من الخيراتِ والحسناتِ، التي قد كان بقيَ لها باقيةٌ ما إلى عصر انحطاطنا".

ويضيف المودوديُّ: إنَّ الأوضاعَ الجديدةَ كأنَّها قلَّتْ من حدِ شعورِنا الدِّيني، حتَّى لم يَعُدْ كثيرٌ من أتقيائِنَا وصلحائِنَا يرونَ بأسًا في أنْ يتولَّى فردٌ من أفرادِ المسلمينِ مَنصبَ القضاءِ أو المُحاماةِ في هذا النِّظامِ القانونيِّ الجديدِ، بل آلَ بهم الأمرُ إلى أنْ يحكموُا بالخارجيَّةِ على من دعا النَّاسَ إلى مبدأ "الحكم لله" وأرادَ أنْ يُحيِيَ هذا المبدأ في أذهانِهم.[1]

وما تركَهُ القانونُ الإنجليزيُ من آثارٍ سيئةٍ في بلاد الهند، تركتهُ بقيَّةُ القوانين الوضعيةُ الفرنسيةُ والسويسريةُ والإيطاليةُ في البلادِ الإسلاميةِ التي أُبتُلِيَت بها، وقد تركت آثارَها في أخلاقِ النَّاسِ وفي حياتِهم الاجتماعيَّةِ، لأنَّها تكادُ تهملُ المسائلُ الأخلاقيَّةَ إهمالاً تامًا، فالزِّنَا في نظرِ هذه القوانينِ لا يُعتبرُ جريمةً يمسُّ الأخلاقَ، فلا تُعاقِبُ عليه إلا إذا أكرَه أحدُ الطَّرفينِ الآخرَ على مباشرتِه، أو إذا حَصُلَ بدونِ رِضَا أَحدِ الطَّرَفَينَ رَضَاءً تامًا، وهى تعاقبُ عليه في هذه الصُّورةِ بعقابٍ لا يردعُ الجَانِي، بل ربَّمَا يشجِّعُه، وكذا الخمرُ فلا تُعاقبَه

[1]– موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 177–178.

القوانينُ الوضعيَّةُ على شربِه إلاَّ إذا وُجِدَ شاربَه في الطريقِ العامِ في حالةِ سكرٍ بيِّنٍ، لأنَّ وجودَه على هذهِ الحالِ يُعرِّضُ النَّاسَ لأذاه واعتدائِه، أي أنَّها لا تُعاقِبُ عليه باعتبارِه مُفسِدًا للأَخلاقِ، ودَافعًا للرَّذيلةِ والفاحشةِ، مُتْلِفًا للمَالِ والصِّحَةِ.[1]

يقول الشهيدُ عبدُ القادر عودة: "هذه القوانينُ قدْ أَفسدَت علينَا تَفكِيرنَا، فبَلبَلَت عقولَنَا، ومسَخَت منطقنَا، وأَفسدَتَ حياتَنَا، فعكَّرت صَفوَنَا، وشَحنَت بالأَلمِ نفوسَنَا، وأَفعمَت بالكَمَدِ والمرَارةِ صدورَنَا. هذه القوانينُ جعلَتْ لنَا تفكيرًا مُضطَرِبًا، ومنطِقًا عَجيبًا، فنحنُ في آنٍ واحدٍ نُحِلُّ الشيءَ، ونُحرِّمُه، ونُبرِمُه ونُنقضُه، حتَّى لقد أصبحَ هذا شأنُنَا في كلِّ شأنٍ من شئونِ الحياةِ، جلَّ أو هانَ.[2]

وفي ظلِّ هذه القوانينِ السائدةِ في بلادِنا الإسلاميَّةِ راجت المُنكراتُ والرَّذائلُ، وانتُهِكَت محارمُ اللهِ تعالى، وارتُكِبَت المعاصيَّ والآثامُ، وراجت الخمورُ والمُخدِّراتُ، وانتشرت دورُ القمارِ والميسرِ، ودورُ الرَّقصِ واللَّهوِ والعربدةِ والمُجونِ، وانتشرت المؤسَّساتُ الرِبَويَّةُ، والجمعيَّاتُ التي تُزَيِّنُ الفجورَ وتدعو إلى ممَارَسَتِه. وفي حمايةِ هذه القوانينِ كَثُرَ المفسدونَ والمُترفونَ والمُرَوِّجونَ للفاحشةِ والرَّذِيلةِ، لأنَّ هذه القوانينَ أَتَاحت لهم ممارسةَ الفسادِ والمنكرَ، وتركتهُم دونَ قوةٍ رادعةٍ زاجرةٍ.

ولقد تركت هذه القوانينُ آثارَها السَّيئةَ في أبناءَ المسلمين الذين أُجبروا – لكونِ القوانين هي الحاكمة– على تَعلُّمِ لغةِ أعداءِ الأمَّةِ، من فرنسيين وإيطاليين وبريطانيين، وتَعَلُّمِ مصطلحاتِ قوانينِهم، ومتابعةِ شروحِ فقائهِم القانونيين، وإجبارِهم على السَّفرِ إلى بلادهم للتَّلقِي عن أساتذتِهم والتَّخَصُصِ للقانونِ في جامعاتِهم ومعاهدِهم، والأخذِ عن مصادرِهم وأنظمتِهم القانونية.. وهذا كلُّه يجعلُ أَبناءَ المسلمين تَابعينَ أذلاَّءَ للغربِ الصَّلِيبِي الكافِرِ، وفي نفسِ الوقتِ محتقرينَ مُزدَرِينَ للشَّريعةِ الإسلامية وتراثِها الأَصيل، فالمسلمُ الذي يَتَخَصَّصُ في دراسةِ القوانين الوضعيَّةِ الغربيَّةِ يكونُ في الغالبِ ملمًا بكلِّ شيءٍ عن الغربِ وعاداتِه وقيمِه وأخلاقِه وتصوراتِه وفلسفاتِه وأوضاعهِ التي استمدَّ منها الغربُ قوانينَه، كما يَعرفُ هذا المسلمُ أسماءَ أَساتذةِ القانونِ الغربي وسيرتَهم وأحوالَهم، بينمَا هو يجهلُ تعاليمَ دينِه وقواعدَه وأنظمتَه وتشريعاتِه، كما يَجهلُ العلماءَ والفقهاءَ المسلمين، الذين تركوا لنَّا ذخيرةً فقهيَّةً ثَمينَةً.[3]

---

[1]– انظر الإسلام وأوضاعنا القانونية: عبد القادر عودة ص 40.

[2]– المصدر السابق ص 67.

[3]– انظر الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص 128، 129.

ثالثاً: كَيْفِيَّةُ تَعامُلِ المودوديِّ مع الحضارةِ المعاصرةِ

عندمَا زَحفَت موجةُ الحضارةِ الغربيَّةِ إلى العالم الإسلامي أُصيبَ المسلمون في أَوَّلِ الأمرِ بالذُّهول والانبهارِ، ولمَّا خفَّت هذه الحدةُ ظهرَت في العالم الإسلامي ثلاثةُ مواقفَ من هذه الحضارة وهي:-

1- الموقفُ المحافظُ، أو مَا يُعبَّرُ عنه بالجمودِ على التُّراثِ القديم.[1]

2 - الموقفُ الذي يدعو إلى التَّغريبِ والأخذِ بكلِّ مُعطيات الحضارةِ، بما فيها من نافعٍ مفيدٍ أو ضارٍ غيرِ نافعٍ.

3- موقفُ النَّقدِ والاختيار.

وفي الصَّفَحاتِ الآتيةِ أَتحدثُ عن الموقفين: المحافظُ الجامدُ على التُّراث، والمقلدُ المستسلِمُ للحضارةِ الغربيَّةِ، ثمَّ أُبَيِّنُ نقدَ المودودي لكلٍ من الموقفيْنِ، وأخيرًا اذكرُ موقفَ المودوديِّ من الحضارةِ المُعاصرةِ وكَيْفِيَّةَ التَّعامُلِ معها، وهو في رأيِنَا يمثِّلُ أصحابَ الاتجاهِ الثالث، الذي يعملُ على حفظِ الكيانِ الإسلامي، معِ الدَّعوةِ إلى الالتزام بالإسلام عقيدةً وشريعةً، والأخذِ عن الحضارةِ الغربيَّة بما يتفقُ وعقيدةِ الأمَّةِ وثقافتِها الأَصيلِة.

أولاً: الاتجاهُ المُحافظُ الجامدُ على التُّراثِ القديم: يدعو أصحابُ هذا الاتجاه إلى رفضِ الحضارةِ الغربيَّةِ، وما جاءت بِه من العلومِ والفنونِ والآدابِ، والاكتفاء بما وَرَّثَه المسلمون من تراثٍ قديمٍ، بما فيه من عناصرَ صالحةٍ، وعناصرَ غريبةٍ لا تمُتُّ له بصلةٍ. وقد رفضَ هؤلاء الجامدون دراسةَ الحضارةِ الغربيةِ ومعرفةِ حقيقتِها، ورفضوا إجراءَ أيَّ تعديلٍ فيمَا ورِثوه، وخاصةً ما كان فيه من المساوئ والعيوبِ التي تَحتَاجُ إلى تغييرٍ أو تعديلٍ.[2]

---

[1]- كلمة التراث المستعملة في هذا الفصل، وخاصةً حين تقعُ في موضعَ الذَّمِ إنَّما يرادُ بها معناها اللُّغوي، وهو ما يرثَه الأبناء عن الأباء من غير تفيد بأن يكون هذا الموروث راجعًا الى أصلِ الدين وشرعتِه.

[2]- انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 190.

وعن هولاء المحافظين على التُّراثِ الرافضينَ لكلِّ جانب من الحضارةِ المعاصرةِ، يقولُ المودوديُّ: "ولا يزالُ رجالُ هذه الطائفةِ الأخيرةِ حتَّى اليومِ من المحافظةِ على القديمِ والضنِّ بآثارِه العتيقةِ على ما كانوا عليه يوم ضرَبتهُم الحَضارةُ الغربيَّةُ بضربتِها الأولى، مِن غيرِ أَنْ يأَتوا بتعديلٍ أو يُعيدوا النَّظرَ في سلوكِهم، ولم يَصرفوا لحظةً من أوقاتهم بجدٍ واهتمامٍ في تحليلِ ما وَرِثوه عن الأقندمين، ومعرفةِ من لم يَحسُنُ الإبقاءُ عليه ولا يحتاجُ إلى التَّغييرِ، وكذلك ما تفكَّروا أصلاً في معرفةِ ما يَحسُنُ أخذُه أو ينبغيَ رفضُه، ممَّا جاءت به الحضارةُ الغربيَّةُ، وما سعَوْا سعيًا معقولاً ليعلموا ما كانَ في نظامِهم القديمِ للفكرِ والعملِ من المساوئِ والأسقامِ التي فتَّت فى عضُدِهم وأوجبت هزيمتَهم، وما عندَ الأمَّةِ الأجنبيَّةَ التي جاءَتهم من وراء البحار من القوةِ العمليَّةِ التي مهدَّت لها السَّبيلَ، وسبَّبَت لها الاستيلاءَ على بلادِهم ، فبدلَ أنْ يُفكِّروا قليلاً في مثلِ هذه الأمورِ المُهمَّةِ ويهتمُوا بِها على الوجهِ الصَّحيحِ، صرفوا وما يزالون يصرفون إلى اليومِ مع الأسفِ جلَّ همِّهم ومعظَمِ قواهم في المحافظة على الأوضاعِ القديمةِ، فلا يزالُ نظامُهم ومنهاجُهِم للتَّعلمِ على ما كان عليه في أوائل القرن التاسع عشر، وما دبَّ ولا أدنَى دبيبٍ من التَغيِّير من مشاغلِهم ومسائلِهم، ووجهاتِ نظرِهم، ومناهجِ عملهِم، وميزاتُ أوساطِهم بكلِّ ما كانَ فيها من السَيئَات أو الحسناتِ".

ويقول: "ما من شكٍ في أنَّ العلماءَ بذلُوا جهودَهم لمقاومةِ الحضارةِ الجديدة، ولكنَّهم كانوا لا يملكونَ الوسائلَ اللازمةَ لهذه المقاومةِ، وذلك أنَّ الحركةَّ لا تحاربُ بالجمودِ، ولا سيَرَ الزمنِ يمنعُ بقوةِ المنطقِ وحدِها، ولا يدفعُ السلاحَ الجديدَ الفتَّاكِ بسلاحٍ صدئٍ أو قديمٍ، وأنَّ المناهجَ الباليةَ التي أرادَ العلماءُ أن يتَخذوُها لقيادةِ الأُمةِ التي أحاط بها طوفانُ العمارةِ الغربيَّةِ من جميعِ الأطرافِ، كيف كانَ لهَا أنْ تُغمِضِ عينيْهَا وتُعَطِّلُ حواسَها، وتنكرُ وجودَ الطوفانِ وتَسَلَمُ من آثارِه، وكيفَ كان لأمَّةٍ ألقى عليها نظامُ الحضارةِ والتَّمدُنِ الحديثِ نفوذَهَ السياسي، أنْ تُجنِّبَ حياتَها العمليةَ من تأثيرِه ونفوذِه، على كونِها في حالِ العبوديَّةِ والهزيمةِ، لذلك كانَ من عواقبِ ذلك ما ينبغيَ أنْ يكونَ، وهو أنْ يَنهزمَ المسلمون في حلبَةَ العلمَ والحضارةَ والتَّمدُنِ أيضًا، بعد أنْ غُلِبوا في ميدانِ السياسةِ.... ومن سوءِ الجدِ أنَّ العلماءَ الإسلاميين لم يشعروا بخطَئِهم في الأمرِ حتَى هذا اليوم، فلا تَزالُ جماعاتُهم في كلِّ قطرٍ تقريبًا ثابتةً على مناهجَهم القديمةَ التي خابت لأجلها مساعيَهم فيما قيل، وما خلا الافرادُ القلائلُ لا ينفكُّ يظعرُ من حالِ السوادِ الأعظمِ من العلماءِ أَنَّهم لا يجهدونَ أنْ يفهموا الميولَ المتجددةَ لهذا العصرِ والوضعِ الجديدِ للعقليات...[1]

[1]– نحن والحضارة الغربية ص 48–49.

ولقد كانت لهولاء المحافظين على التُّراثِ أعذارٌ جعلَتهُم يقفونَ هذا الموقفَ من الحضارةِ الغربيَّة، منها: أنَّ تيارَ الحضارةِ القديمِ إلى العالم الإسلامي كان شديدًا جارِفًا، لا يمكنُ مواجهتُه إلاَّ بالصُّمودِ والمُحَافَظةِ على التُراث القديمِ، ورفضِ هذه الحضارةِ، وما جاءتْهُ من نظريَّاتٍ وأفكارٍ وعلومٍ وفنونٍ وآدابٍ، ومنها: أنَّ الاقتباسَ والأخذَ عن الحضارةِ الغربيَّةِ قدْ ينتهي إلى ذوبانِ الفكرِ الإسلاميِّ في أفكارِ هذه الحضارةِ وثقافتِها وعلومِها. ولكنَّ هذه الأَعذَارَ غيرُ مقبولةٍ من وجهةِ نظرِ المودوديِّ، فهي في نظرِه لا تُسمِنُ، ولا تغني من جوعٍ. ومع أنَّ هذا الموقفَ السَّلبيِّ من الحضارةِ لمْ يَكُنْ هو الموقفُ المطلوبُ الذي يجبُ على المسلمين اتخاذُه تجاهَ الحضارةِ المعاصرةِ، إلاَّ أنَّ له منافعَ وحسناتٍ لا يستطيعُ المرءُ أنْ يتجاهلَها أو يَغُضُّ الطرفَ عنها، ومن هذهِ المنافعِ أنَّ علومَ القرآنِ الكريمِ والسُّنةِ النَّبويَّة الشَّريفةِ والتُراثُ الفقهي قد وصلنا بفضلِ جهودِ أصحابِ هذا الاتجاهِ، وأَوجدوا لنا رجالاً احتفظوا بما تَرَكَه السَّلفُ الصالحُ من تُراثٍ دينيٍ وخُلُقي، وقاموا بنقلِه إلى الأجيالِ المُتعاقبةِ، ومن هذهِ المنافعِ أنَّهم حافظوا على خصائصِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ، حيثُ ظلَّوا متمسكين بهذهِ الخصائصِ حسب قدرتِهم وطاقاتِهم.[1]

وعلى الرغمِ من تلكِ المنافعِ التي حَقَّقَها أصحابُ الاتجاهِ المُحافظ، فإنَّ هناك أضرارًا لِحقَت المسلمين من جَرَّاءِ الموقفِ السَّلبي الرَّافضِ لكلِّ مُعطياتِ الحضارةِ الغربية، وهذه الأضرارُ هي:-

1- الاحتفاظُ بالمساوئِ والعيوبِ التي كانت موجودةً في التَّصوراتَ الدِّينيَّة في عصرِ الانحِطَاطِ.[2] ويُحدِّثُنا المودوديُّ عن حالةِ العلماءِ في عصرِ الانحطاطِ والجمود الفكريِّ الذي انتقلت كثيرٌ من مساوئِه وعيوبِهِ إلى التُّراثِ الدِّيني الذي حافظَ عليه الذين رفضوا الحضارةَ المعاصرةَ، فيقول رحمه الله: "إنَّ المشاغلَ التي شغلَت معظمَ علمائِنَا وألهَتْهُم عن الجدِّ في أمرِ الدِّينِ الحقيقي، كانت من قبل أَن كانوا يتناظرون في المسائلِ التافهةِ غيرِ المُهمَّةِ، ويحسمونَها في نظرِ النَّاسِ، ويوارونَ عنهم المسائلَ الهَامَّةَ الجليلةَ، ويجعلون الخلافَ أساسًا لفرقٍ مستقلةٍ، ويجعلونَ التَّحزُبَ والتَّفَرُقَ مضمارًا للمجادلاتِ والمخاصماتِ، ويقتلونَ أعمارَهم في تعليمِ علومِ المعقولاتِ اليونانيَّة وتعلُّمِها، أمَّا الكتابُ والسُّنةُ فلم يكنْ لهم ولوعٌ بدراستِهمَا، ولم يؤتَوا حظًا من معارفِهما. ولذلك لم يتمكَّنوا من تعميمِ معارفِ القرآنِ والسُنّة، وترغيبِ النَّاسِ في ارتياد مناهلِها، وأمَّا إنِ كانَ لهم بعضُ شغفٍ بالفقهِ، فإنَّما ذلك إلى حدٍ يُعِينَهم على مجادلاتِهم ومناقشاتِهم في الجُزئيَّاتِ والفروعِ. إنَّهم لم يلتفتوا ولو أَدنَى التفاتٍ إلى التَّفقهِ في الدِّينِ بمعناه الشَّاملِ. ولذا فحيثُما كان لهم نفوذٌ أو تأثيرٌ، ضاقت وجهةُ نظرِ النَّاسِ في

---

[1]- انظر موجز تاريخ جديد الدين وإحيائه ص 192،191. نحن والحضارة الغربية ص 50،49.

[2]- انظر موجز تاريخ جديد الدين وإحيائه ص 192.

الدِّين، فلا عجبَ إذا كنَّا قد ورثنَا اليومَ هذا الزَّرعَ الأخضرَ من المجادلاتِ والمناظراتِ والتَّحَزبَاتِ والفِتَنِ المُستمرَّةِ.[1]

ويرى المودوديُّ أنَّ التَّصوراتِ الدِّينيَّةَ في عصرِ الانحطاطِ قد دخلتهَا أيضًا مساوئُ الصُّوفيَّة، الذين انحرفوا عن الكتابِ والسُنّة، وخلطوا التَّصوفَ بالفَلسفَاتِ الجَاهِليَّةِ كالمانَويَّةِ والزرادِشتِيَّةِ والفلسفةِ الإشراقيَّةِ وغيرِها.[2]

إنَّ المساوئَ والعيوبَ التي احتفظَ بها الرافضونَ لحضارةَ الغربَ تقفُ اليومَ عقبةً كؤودًا أمامَ الإنقلابِ الإسلاميِّ الصَّحيح.[3]

2- إنَّ التُراثَ الدِّيني المُحافظَ عليه لم يُكنْ يَحملُ الجوهرَ الحقيقيَّ للدِّينِ والأخلاقِ والحضارةِ. وبذلك لم يكُنِ في استطاعتِه مقاومةَ تيَّارِ الحضارة الغربيَّةِ الجارِفِ. وقد أَدَّى الجمودُ على التُّراثِ إلى اضمحلالِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ وانكماشها في الوقتِ الذي أَخذتْ فيه الحضارةُ الغربيَّةُ في التَّقدمِ والرُقِي، رغمَ احتوائِها على الضَلاَلاَتِ الفكريَّةِ والمفاسدِ الأَخلاقِيَّةِ والغاياتِ الشهوانيَّةِ الحيوانِيَّةِ.

3- إنَّ المزيجَ من الإسلام والتقاليد الغيرِ إسلامية التي حافظَ عليه المتجاهلونَ لحضارةِ الغربِ كان سببًا في ابتعادِ أصحابِ الريبةِ عن الإسلام. فالمباحثُ والمسائلُ في التُّراثِ القديمِ لم تَكُنْ مقنعةً للأذهانِ والعقولِ، أو موثرةً في القلوبِ، وفي نفسِ الوقتِ جذبت الحضارةُ الغربيَّةُ كثيرًا من المسلمين الذي خُدُعوا بزخرفتِها ومفاتنِها، وانحصرَ التَّدَيُنِ في طائفةٍ مُعينَّةٍ من المسلمين، وأَصبح تمثيلُ الإسلامِ في العلمِ والعقلِ واللُّغةِ والأخلاقِ ينحطُّ يومًا بعدَ يومٍ.

4- إنَّ من سيِّئَاتِ الجُمودِ على التُراثِ وعدمُ الأخذِ عن الحضارة المعاصرة تَنَحِي العلماءُ عن زعامةِ المسلمين وقيادتِهم. وأصبحَ أمرُ إرشادِ المسلمين وتوجيهِهم في مختلفِ شؤونِ حياتِهم السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والثقافيَّة بيدِ طائفةٍ تَجهلُ الإسلامَ وتُحارِبُه، وتنقادُ لثقافةِ الغربِ وأنظمتِه وأفكارِه البَّاطلةِ، وبذلك وقعَ المسلمون تحتَ سيطرةِ نُظُمِ الغربِ السِّياسِيَّةِ والثقافيَّةِ والاقتصاديَّة، وتسَرَّبَت إلى حياتِهم أخلاقُ الغربِ الماديَّةِ وقيمِه ومبادئِه المخالفةِ للإسلام. وأمَّا العلماءُ فجلسوا في زوايَاهُم، يشتغلُونَ بالتَّدريسِ والذِّكرِ والتَّسبِيحِ، وانقادُ بعضُهم للزُّعماءِ السياسيين، ولم ينكروا عليهم ضلالاتِهم وفكرِهم، بل أَخذوا يُصدرونَ الفتاوَى التي يؤيِدونَ بها القادةَ والزعماءَ على الرغمِ من كونها مخالفةً للإسلامِ، وفي نفسِ الوقتِ يرفعونَ النَّكيرَ على عامَّةِ النَّاسِ إذا خالفوُهم في أيِّ مسألةٍ جُزئيَّةٍ، ولو لم يكن عليها نصٌ في الكتابِ والسُنَّةِ.[4]

---

[1]- المصدر السابق ص 150.

[2]- نفس المصدر السابق ص 152.

[3]- نفس المصدر السابق ص 192.

[4]- انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه 192-196.

حكمُ هذا الموقفِ شرعًا:

إنَّ الإسلامَ يحاربُ الجمودَ والتَّخلفَ، لأنَّهما من الأمراضِ التي سَبَّبَت انحلالَ كثيرٍ من المُجتمعاتِ، وهو موقفٌ يُسِيءُ إلى الإسلامِ الذي تدعو نُصوصُهِ الدِّينيَّةِ إلى استعمالِ العقلِ والتَّفكيرِ في الكونِ، واقتباسِ النافعِ المُفيدِ، وإعدادِ القوَّةِ لمواجهةِ الأعداءِ. قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران:12-13، وقال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ) الأنفال:60. وقالَ صلَّى الله عليه وسلَّم: "الحكمةُ ضالةُ المؤمنِ، فحيثُ وجدَها فهوَ أَحقُّ بها".[1] وهذا الموقفُ يجرُّ على أتباعِه التَخلُّفَ الشَّديدَ عن ركبَ الحياةَ، وطبيعةُ الحياةِ تأَبَاهُ. ولقد اقتبسَ صلَّى الله عليه وسلَّم بعضًا من أساليبِ الحربِ السَّائدةِ في زمنِه، كَحَفْرِ الخَندَقِ حولَ المدينةِ في غزوةِ الأَحزابِ، كمَا كانَ يحفرُهَ الفُرسُ. واقتبس الخليفةُ الرَّاشدُ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه نظامَ الدَّواوينَ عن غيرِ المسلمين. إنَّ في الجمودِ عُزلَةٌ وإنطواءٌ تأبَاهُ النَّفسُ البشريَّةُ لأنَّه يخالفُ فِطرتَها الإنسانيَّةَ التي تَتَطلَّعُ إلى الجديدِ، كمَا أنَّ فيهِ مخالفةٌ للسُّنَنِ الكونيَّةِ، وطبائعِ الأشياءِ.[2]

ثانيا: الموقف المقلد المستسلم للحضارة الغربية:

لقد استطاعَ الغربُ الصَّليبيِّ أنْ يربيَّ طائفةُ من أبناءِ المسلمين على ثقافتِه الماديَّةِ، وذلكَ في المؤوسَسَاتَ التَّعليميَّةِ التي أقامها في كثيرٍ من ديارِ الإسلامِ التي وقعت تحتَ سيطرتِه الاستعماريَّةِ، أو عنْ طريقِ المناهجِ الثَّقافيَّةَ والنُّظمِ التَّعليميَّةِ التي تركَها في هذه الديارِ بعدَ رحيلِ قوَّاتِه العسكريَّةِ عنها، أو عن طريقِ التَّربيَّةِ المباشرةِ التي يتلَقَّاهَا هؤلاءَ في أَحضانِ المعاهدِ والجامعاتِ الغربيَّةِ، حيثُ يُرْسَلونَ إلى هناكَ في بعثاتٍ دراسيَّةٍ، أو على نفقاتِهِمْ الخَّاصَّةِ لإنبهارِهم بمَا وصلَ إليهِ الغربُ من تَقَدُمٍ ورُقِيٍ في مجالِ العلومِ والفنونِ وطريقةِ الشُّربِ في تربيةِ هؤلاءِ المسلمينِ تُرَكِّزُ على ناحيتَيْنِ: الأولى: تشويه الإسلام عقيدةً وشريعةً وتاريخًا. والثانيَةُ: التَّشبُعُ بروحِ الحضارةِ الغربيَّةِ وثقافتِها الماديَّةِ، والنَّاسِ بالغربِ في طريقةِ تفكيرِه، ونظرِهِ إلى الأمورِ وأسلوبِهِ في الحياة.[3] ولكي يؤدِّيَ الذين تَرَبَوْا في أحضانِ

---

[1]- الحديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذى رقم 2688 في العلم باب ما جاء في عالم المدينة، وقال: حديثٌ غريبٌ، لا نعرفَه إلاَّ من هذا الوجه، وابن ماجه رقم 4169 في الزهد، باب الحكمة

[2]- انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوى ص13، 14، 15، معالم الثقافة الإسلاميَّةَ: د.عبد الكريم عثمان ص 104.

[3]- انظر واجب الشباب المسلم اليوم ص 9-10.

الثقافةِ الغربيَّةِ دورَهم فى تغريبِ الأجيالِ المسلمةِ، ووضعهم الاستعمارُ الغربيُّ على رأسِ المناصبِ والمراكزِ التَّعليميَّةِ والاجتماعيَّةِ والسيَاسِيَّةِ، وفرَضَهم في مكانِ الصَّدارةِ في جميعِ المجالاتِ الحَيَويَّةِ.[1] وأخذَ هؤلاءِ المتفرنجونَ – الذين ربَّاهم الغربُ على عينِه– في تربيَةِ الأجيالِ المُسلمةِ على ما همْ عليهِ من الجهلِ بالإسلامِ، وقاموا بتشكيكِ المسلمين في عقيدتِهم وشريعتِهم وتاريخِهم، وفي نفسِ الوقتِ قاموا بتمجيدِ الحضارةِ الغربيَّةِ، وما أَفرزتْهُ من نظريَّاتٍ وأفكارٍ هزيلةٍ، ورسَّخوا في أَذهَانِهم أنَّ كلَّ ما يأتِي من الغربِ يجبُ الإيمانُ بِه، والعملُ بمقتضَاه، وأَلقَوْا في قولوبِهم أنْ لاَ سبيلَ للتَّقدمِ والرُقِيِّ إلاَّ باتِّبَاع الحضارةِ الغربيَّةِ، وإنَّ الإعراضَ عنها تَخَلُّفٌ ورجعيةٌ.[2] ولكي يَحكمَ الغربُ الاستعماريُّ خطتَه في خضوعِ المسلمين لحضارتِه قامَ بإتاحةِ فُرَصِ العملِ للذين يَتَخرَّجونَ من معاهدِه وجامِعاتِه، وضيَّقَ الخِنَاقَ على الذين يَرفضونَ دخولَ مؤسَّسَاتِه التَّعليميَّةِ، وعلى الذين يَتَخرَّجونَ من غيرِ معاهدِهِ وجامِعَاتِه، ومنْ ثَّمَّ اضطرَّ كثيرٌ من المسلمين إلى إدخالِ أبنائِهم المعاهدِ والجامعاتِ الغربيَّةِ التي أَبعدتَهُم عنْ دِينِهم، وأفسدَ عليهِم أخلاَقِهم وعاداتِهم الإسلاميَّةِ.[3]

ومن العَجَبِ أنْ يَدَّعِيَ أَتباعُ الحضارةِ الغربيةِ من المسلمين أنَّهم حينَ يدعون إلى تقليدِ الغربِ في حضارتِه، فإنَّمَا يَهدِفونَ إلى تحريرِ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ من سيطرةِ الاستعمارِ، وأنَّهم يرمونَ إلى إصلاحِ أحوال المسلمين المُتَرَدِّيَةِ. ورداً على هذه التُّرهَاتَ وأَمثالَها، يقولُ المودودىُّ: أمَّا الحضارةُ الغربيَّةُ، والأَسُسُ الخُلُقيَّةُ الماديَّةُ التي خلقها المستعمرون الغربيون بعد مغادرتِهم البلاد الإسلامية، فهؤلاء المتفرجون من المسلمين لا يعضُّونِ عليها بالنواجذِ فَحَسب، بلْ قد شمروا عن ساقِ جَدِّهم لتعويدِ شعوبِهم عليها أكثرَ ما تعوَّدَت عليها في عهدِ الاستعمارِ. إنَّ هؤلاء المساكين لا يقدرونَ أنْ يَتصوَّروا نظامًا للحياةِ الاجتماعيَّةِ لا يقوم على أُسُسِ القوميَّةِ والوطنيَّةِ وما إلى ذلك من النُّظمِ الحديثة. وقد انتهى بهم الأمرُ إلى أنَّهم شَتَّتوا شِمْلِ المسلمين باسم القوميَّةِ، وفرَّقوا جمعهَم، وفرَّقوا كلمتَهم باسم الوحدةِ القوميَّةِ، فجعلوُهم يقتلُ بعضُهم بعضًا، ويأكلُ قويُّهم ضعيفَهم، كلٌّ ذلك باسم القوميَّةِ، كما بَلَغَ الإلحادُ من أذهانِهم مبلغَه، وأُشربوا في قلوبِهم العلمانيَّةَ، وصاروا ينتهزونَ كلَّ فرصةٍ سانحةٍ لإفسادِ الجيلِ الحاضرِ وتعكيرِ صفوَ أخلاقِه ودينِه، والانحرافِ بهِ عن جادَّةِ الإسلام وتعاليمِه، بل

---

[1]– انظر المصدر السابق ص 11، الإسلام اليوم ص 44. ويعدُّ سعد زغلول باشا واحدًا من الذين ولاَّهم الاستعمارُ المناصبَ والمراكزَ الخطيرةَ في العالم العربي، حيثُ ولاَّه اللورد كرومر المعتمدُ البريطاني وزارةَ المعارفِ المصرية، وسعد زغلول معروف بصلاتِهِ الحميمةِ بالدوائرِ الاستعمارية، وهو من القادة السياسيين الذين جلبوا العارَ لأمتِهم العربيَّةَ. انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 407/2.

[2]– نظر واجب الشباب المسلم اليوم ص 11–16. الإسلام اليوم ص 49، 50.

[3]– الإسلام اليوم ص 43، 44، 45. الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 241.

وتشجيعِه على الاستهتار بالعقائدِ الإسلاميَّةِ من البَعثِ والنُّشورِ، والجنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ والعقابِ. ونَشَطوا في إشاعةِ الإباحيَّةِ التي هم منغمسونَ فيها إلى آذانِهم تحتَ ستارِ الإصلاحِ والحريَّةِ الفرديَّةِ، والتَّقدُمِ وتنويرِ الرأي العامِ".

ويضيف المودوديُّ: "إنَّ الذي لا يختلفُ فيه أثنان ولا ينتطحُ فيه عنزان، هو أنَّ هولاء المتفرجين مهما ناصبوا الاستعمارَ الغربي عداءَهم، ومهما أثاروا ضدَّه الضجاتِ فإنَّ المستعمرينَ أحبُّ إليهم لديهم من كل شيءٍ، بدليلِ أنَّ كلَّ بادرةٍ من بوادر الغربِ تأخذُ بجامعِ قلوبهم، وكلَّ ظاهرةٍ من ظواهرِهِ تبهرُ عيونَهم، وكلُّ ما يأتي إليهم من الغربِ يعتبرونَه مقياسًا للحقِّ ومعيارًا للتَّقدُمِ، ويُقَلِّدونَه في كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، مستطرٍ وغيرِ مستطرٍ، مع الفارقِ أنَّ الغربَ مجتهدٌ فيمَا يَعملُ، وهم مقلِّدون لا رأيَ لديهم ولا تفكيرٍ، وأنَّ الغربَ يَهلكُ عن بينَّةٍ، وهم يهلَكون عن عمَى، خسِروا الدنيا والآخرةِ، وذلك هوُ الخسرانُ المبين".[1]

وعن أخطارِ تقليدِ الحضارةِ الغربيَّةِ، يقولُ المودوديُّ: "أمَّا نحنُ المسلمين إذا أَخذنَا بالحضارةِ الفاجرةِ، واتبعناها فإنَّها تعودُ على عقيدتنا ومبادئنا الإيمانية أيضًا بالأضرارِ، وتُزلزِلُ دعائمَها، وتُضعِفُ أصولَها في قلوبها، وتثيرُ في قلوبِنَا أسبابَ التَّمردِ على الله ورسولِه، وتبعثُنَا على الخروجِ عن دِينِه"[2] ويقولُ: "أمَّا إذا لم نقدر على إبقاءِ الخصائصِ الحضاريَّةِ المُمَيزَّةِ لأُمتنَا، وأصبحت أجيالنُا النَّاشِئةُ تصطبغُ بالحضارةِ الأمريكيَّة مثلاً، وتفتتنُ بها، وتنصاغ في قالبِها بدلاً من الحضارةِ الإسلاميَّةِ، فإنَّ هذه الأرضَ لن تبقَى أرضًا إسلاميَّةً، وإنَّما تتحولُ أرضًا أمريكيَّةً عاجلاً أو آجالاً. نعم ستوجدُ أجيالنُا على وجهها، ولكن مُتَمَثلةً في قالبٍ أَمريكي، ولا يعني ذلك بقاءُ الحضارةِ الإسلاميَّةِ التي لأَجلَها أخذت هذه الأرض، بلْ يَعنِي ذلك بقاءُ الحضارةِ الأُخرى، التي تقضِي على شخصيَّتَنَا القوميَّةَ، أو بالأحرَى شخصيتنَا الإسلاميَّة.[3]

ويعتبرُ المودوديُّ الذين يُرَوِجونَ للحضارةِ الغربيَّةِ في العالم الإسلامي من المجرمين الذي لا يَصلُحونَ أنْ يكونوا أعضاءَ في المجتمعِ الإسلامي، بلْ يجبُ على المجتمعِ الإسلامي أنْ يَلفظَهم خارجَ حدودِه.[4]

---

[1]– واجب الشباب المسلم اليوم ص 16–17.

[2]– دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي ص 19.

[3]– نفس المصدر ص 11.

[4]– دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي ص 21، 22.

ثالثا: موقفُ النَّقدِ والاختبار:

هو الموقفُ الذي يواجِهُ الحضارةَ الغربيَّةَ مواجهةَ الوَاثِقِ بنفسِه، المتمكِّنَ ممَّا عندَه من إمكاناتٍ وطاقاتٍ، فهو يدعو المسلمين إلى الإلتزامِ بالإسلامِ، مع الأخذِ عن الحضارةِ المعاصرةِ بمَا يتفقُ مع عقيدتِهِم وثقافتِهم الأصيلةِ.

ولقدْ سبقَ أنْ ذكرتُ أنَّ المودوديَّ من الذين يُمَثِّلونَ هذا الاتجاهَ، كما ذكرتُ موقفَه من الذين يَرَوْنَ ضرورةَ رفضِ الحضارةِ الغربيَّةِ، شرِّها وخيرِها، وموقفَه من الذين يدعون إلى مُحاكاةِ هذه الحضارةِ وتقليدِها – بكلِّ ما فيها من خيرٍ وشرٍ– من أجلِ الُلحوقِ بالرَّكبِ الحضاري ومسايَرَةِ العصرِ الحاضرِ.

وقد تَبَيَّنَ لنا عدمَ رضا المودوديِّ عن كلٍّ من هذين الموقفينِ، فكلاهما جانبَ الصَّوابَ وابتعدَ عن الحقِّ. وفي الصَّفحاتِ القادمةِ أذكر موقفَ المودوديِّ من الحضارةِ المعاصرةِ وكيفيَةِ التَّعاملِ معها، وأُبَيِّنُ وجهةَ نظرِهِ في كيفيَّةِ المُحافظةِ على الحضارة الإسلاميَّةِ التي تواجِهُ التَّحديَّ الخطيرَ من الحضارةِ الغربيَّةِ التي أصبحت لها الغلبةَ والسيادةَ في العصر الحاضر، وأخيرًا أُبيِّنُ موقفَه من العلومَ والمخترَعَاتِ التي أفرزتهَا هذه الحضارةِ.

إنَّ المودوديَّ من المفكرين المسلمين الذين يَرَوْنَ ضرورةَ الالتزامَ بالمنهجِ الإسلاميِّ الأصيلِ في مواجهةِ الحضارةِ الغَربيَّةِ المُعاصرةِ. فالقرآنُ الكريمُ يدعونَنَا إلى الاقتداءِ بالنَّبِيِ صلَّى الله عليه وسلَّم وتَتَبُّعِ سنَّتِهِ الشَّريفةِ. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) الأحزاب:21. وفي سُنَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم ما يهدِي المسلمين إلى كيفيَّةِ التَّعاملِ مع الحضارةِ المعاصرةِ، ذلك أنَّ الحضاراتِ الجاهليَّةِ من رومانيَّةٍ وفارسيَّةٍ وهندوسيَّةِ وصينيَّةِ كانت موجودةً في الزمنِ الذي أُنْشِئَت فيه حضارةُ الإسلامِ العريقةِ، ولقد كانت لهذهِ الحضاراتِ أفكارُها وثقافتُها وعلومُها وفنونُها، وقد أخذَ المسلمون أشياءَ عن هذهِ الحضاراتِ، ولكنَّ ما أَخذوه ذابَ في حضارتِهم الإسلاميَّةِ، حيثُ إنَّ الإسلامَ كان مُسَيطرًا بشمولِه على حياةِ المسلمينِ العمليَّةِ والفكريَّةِ، وكانت روحُ الجهادِ والجدِ والاجتهادِ قويَّةً في المسلمين، لذلك لمْ تجرؤ أيُّ حضارةِ أنْ تُثبِتَ أمام حضارتِهم، فأَينمَا حلُّوا أَحدثوا بالإسلامِ انقلابًا شَمِلَ نظريَّاتِ الحضاراتِ الأُخرى، وشَمِلَ أفكارَها وعلومَها وعاداتِها وأساليبِ رُقِيِّها.

ولكنَّ الواقعَ اليومَ يختلفُ عنِ السَّابقِ، إذْ تَخَلَّفَ المسلمونَ علميًا وعمليًا، فشريعةُ الله تعالى معطلةٌ عن التَّطبيقِ في واقعِ حياتِهم، وكتابُه الكريمِ وسنَّةُ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعيدان عن واقعِ المسلمين اليوم، لذلك فليسَ الاحتكاكُ الحاصلُ اليومَ بين الإسلامِ والحضارةِ الغربيَّةِ إنَّما هو بينَ واقعِ المسلمين المُتخلِّفِ عن الإسلام وبينَ الحضارةِ الغربيَّةِ النابضةِ بالحركةِ والحياةِ.[1]

[1]– انظر نحن والحضارة الغربية ص 43–46.

وحين يدعو المودوديُّ المسلمين إلى الأخذِ عن الحضارةِ المعاصرةِ، فهو يُنبِّهُ إلى ضرورةِ الحذرَ والحيْطَةِ في عمليَّةِ الأخذِ. أي لابدَّ من عمليَّةِ الفحصِ والتَّمحيصِ التي تكشفُ عمَّا في الحضارةِ المعاصرةِ من الأمور التي يرى فيها الإسلام خيرًا للمسلمين، وتكشفُ عمَّا فيها من الفسادِ الذي يُهدِّدُ كيانَ المسلمين، ويعملُ على هدمِ عقيدتِهم، وهذا ما يجبُ نقدِه وتحذيرِ المسلمين من أَخذِه. يقول المودوديُّ: "إنْ كان هناك شيءٌ يَنبغِي ويستحقُّ أنْ تأخذَهُ أُمَّةٌ عن الأممِ الأخرىَ فإنَّما هو نتائجُ أَبحاثَها العلميَّةِ، وثمراتِ قواها الفكريَّةِ، ومعطياتِها الاكتشافيَّة، ومناهجِها العمليَّةِ التي بلَغت بهَا مدارجَ الرُقيِّ في الدنيا. إنَّ أيَّ أُمَّةٍ في الأرضِ إذا كان في تاريخِها أو في نُظمِها الاجتماعيَّةِ أو في أخلاقِها دورٌ نافعٌ، فمنَ الواجبِ أنْ نأخُذَهُ منها، ومن الواجبِ أنْ نَستقصِيَ أسبابَ رُقيِّها وازدِهارِها بكلِّ دقةٍ وتمحيصٍ، ونأخذُ منها ما نراه ملائمًا لحاجتِنَا وظروفِنَا، لأنَّ هذه الأمورِ إرثٌ مشتركٌ بين الإنسانِيَةِ، ومنِ الجهلِ المَحضِ عدمِ إعطائِها ما تَستَحِقُّ من الأهميَّة والَّتقديرِ، والتَّردُدُ في الأخذِ بها بناءً على العَصَبِيَّةِ القوميَّةِ.[1]

ويدعو المودوديُّ المسلمين إلى ضرورةِ مجابهةِ الحضارةِ المعاصرةِ وإزاحةِ أثارِها السَّيئةِ من الأوساط الإسلاميَّةِ. وهذا في نظرِهِ لا يتحقَّقُ إلاَّ بالعملِ الجادِ المُخلصِ، العملِ الذي يستهدِفُ إقامةَ النِّظامَ الإسلاميِّ الذي يهيمنُ على حياةِ الفردِ والأسرةِ والمجتمعِ، وفي نفسِ الوقتِ يسيطِرُ بتعاليمِه وثقافتِه على العلومِ والآدابِ والفنونِ، ومعاهدِ التَربيَّةِ والتَّعليمِ، ويستولِيَ على ميادينِ السِياسَةِ ومؤسِّسَات الحكومةِ ودوائرِها، ومهارةٌ أخرى لابدَّ من قيامِ الدولةِ الإسلاميَّةِ، فهي وحدَها التي تستطيعُ تحدِّيَ الغربَ في حضارتِه المَادِيَّةِ.[2]

وإذا كان المسلمين اليومَ ليسَتْ لهُمْ دولةٌ إسلاميَّةٌ يعيشونَ في كنفِها حياةً إسلاميَّةً خالصةً، ويواجهونَ من خلالِها الحضارةَ المعاصرةَ، فكيفَ السبيلُ لمواجَهةِ هذهِ الحضارةِ في ظلِّ الظروفِ التي يعيشُها المسلمون اليوم؟. فيرىَ المودوديُّ أنَّ واجبَ الحركةِ الإسلاميةِ التي أَخذَت على عاتِقِها إقامةَ الدولةِ الإسلاميَّةِ القيامُ بمهمَّةِ المواجهةِ للحضارةِ المعاصرةِ، وذلك يَتّحَقَّقُ بمَا يَلِي:-

1- دراسةُ الحضارةِ الغربيةِ وانتقادُها، وبيانُ ما فيها من نافعٍ يُستفادُ منه، وما فيها من ضارٍ يجبُ الابتعادُ عنه.

2- تطهيرُ الحياة الإسلامية من أدناس الحضارة، وآثارها الوخيمة.

3- تحريرُ عقولِ المسلمين وقلوبِهم من التَبعيِّةِ للغرب الصليبي، وذلك بالقضاءِ على المفاهيم المُنحرفةِ التي أفرزتها الحضارةُ الغربيةُ، وبتعريفِ المسلمين بالتَّصور الإسلامي الصَّحيحِ للكونِ والحياةِ والإنسان.

---

[1]- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 163.

[2]- انظر موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص 202-203.

4- تدوينُ تعاليمِ الإسلام لمختلفِ جوانب الحياة، وذلك بطريقةٍ علميَّةٍ، تُقنِعُ الأجيالَ المسلمةَ بأنَّ النِّظامَ الإسلامي إذا قام والتزمت به دولةٌ من الدُّولِ فإنَّها لا تَتَقدَّم فحسب، بل ستكون لها الغلبةُ والسَّبقُ على غيرِها من الدُّولِ الغربية التي تَتَبَجَحُ بالحضارةِ والمدنيَّة.[1]

وقد وجَّهَ المودوديُّ اللومَ إلى علماءِ المسلمين الذين لم يبذلوا جهودَهم للوقوفِ على معرفة أُسُسِ وتَصوراتِ الحضارة المعاصرة ومعرفةِ علومِها وأثارها. يقول: "إنَّه كانَ من واجبِ العلماءِ في الحقيقةِ أنْ يَنتَبِهوا حينما ابتدأ هذا الانقلابِ، فكان عليهم أنْ يتفهَّموا مبادئ الحضارةِ الطارئةِ، وينفِروا إلى أقطار الغربِ ليتفقَّهوا في العلوم التي نهضت على أساسِ هذه الحضارة، كما كان عليهم أنْ يستعملوا قوَّةَ فكرِهم واجتهادِهم، فيأخذوا من الغربِ تلك الاكتشافاتِ العلميَّةِ والمناهجِ العمليَّةِ التي تَقَدَّمت بفضلها الأمم الغربية في سبيلِ الرُقي، ويرَكِّبوا تلكَ الأجزاءِ الحديثةِ في مكانِ النِّظامِ التعليمي والحياة المدَنيَّةِ عند المسلمين ضمنَ مبادئ الإسلام، بصورةٍ تَتَلافى بها الخسارةَ العظيمةَ التي قد تَنَالَهم من الجمودَ المُستمرِ على القرونِ، وتجعلُ الرَّكبَ الإسلامي يتمَاشَى مع الزَّمنِ الحديثِ.[2]

ذلك هو موقفُ المودودي من الحضارةِ الغربيَّةِ بشكلٍ عامٍ، ورأيُه في كيفيَّةِ مجابهةِ هذه الحضارةِ. والآن أَعرضُ موقفَه من العلومَ التَّجريبيَّةِ التي أفرزتها هذه الحضارةُ.

إنَّ كثيرًا من العلومِ التي تُدرَّسُ في معاهدِ وجامعاتِ المسلمين اليوم هي في الأصلِ من تدوينِ الغربِ الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وقد دوَّنَها بطريقةٍ تُنشِيءُ في الذهنِ تصورًا ماديًا إلحاديًا عن الكونِ والإنسانِ والحياةِ. فالإنسانُ كما تُوَجِبَه النَّظريَّاتُ الغربيِّةُ هو سيِّدُ نفسِه، وموجِّهُ نفسِه، فلا يَحتاجُ إلى إلهٍ يرشدُه ويهديَه، ولا إلى شريعةٍ دينيةٍ يلتزمُ بتعليماتِها، ولا يَتَعدَّ حدودَها، والكون ليسَ لَه إلهٍ خالقٍ مُدَبِّرٍ مُتصرفٍ، بل يسيرُ بنفسِهِ كما وُجِدَ بنفسِه.

إنَّ العلومَ التجريبيَّةَ الغربيَّةَ أصبحَتْ مُنحرفةً عن المعقولاتِ وتابعةً للمحسوساتِ، ومن هنا فلاَ يَجوزُ للمسلمِ أنْ يَتقبلَ هذه العلومَ دونَ فحصٍ وتمحيصٍ، أو دونَ إصلاحٍ وتعديلٍ، بل يجبُ عليه أنْ يُخضِعَ هذه العلومَ للنقدِ من وجهةِ النَّظرِ الإسلاميَّةِ، فيقبَلُ منها النافعَ المفيدَ، ويُطرحُ السَّيءَ الضَّارَ، وخاصةُ الفلسفةِ الإلحاديَّةِ التي تُصرِّحُ بها هذه العلوم.[3]

ويردُّ المودوديُّ على الذين يزعمونَ أنَّ العلومَ التجريبيَّةَ علومٌ عالميَّةَ لا صلةَ لها بدينَ من الأديانِ أو مذهبٍ من المذاهبِ، فيقولُ: القولُ بأنَّ العلومَ التَّجريبيَّةَ علومٌ عالميةٍ لا تنحازُ لدينٍ من الأديانِ، فهذهِ غلطةٌ كبيرةٌ، وجهلٌ فاحشٌ. إنَّ العلومّ التَّجريبيَّةَ لها ناحيتان: الأولى

---

[1]- واجب الشباب المسلم اليوم ص 23، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص201.

[2]- انظر نحن والحضارة الغربية ص 47.

[3]- انظر المصدر السابق ص 190-191، دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي ص 31-32.

عبارةٌ عن الحقائقِ وقوانينِ الطَّبيعةِ التي تُعرَّفَ عليها الإنسانُ بعدَ أنْ اجتازَ مراحلَ عديدةً من التَّجربةِ والاختبارِ والمشاهدةِ. وهذه النَّاحيَّةَ لا يَشكُّ أحدٌ في كونها عالميَّة. النَّاحيَّةُ الثانيةُ تَتَمثلُ في العقليَّةِ التي تُدوِّن هذه الحقائقَ والمعلوماتِ، وتضعُ على أَسَاسِها النَّظرياتِ، كما تَتَمثَّلُ النَّاحيةُ الثَّانيةُ في اللُّغةِ التي تختارُها هذه العقليَّةُ أداةً للتعبيرً عن هذه النَّظريَّاتِ، فهذه النَّاحيةِ ليست شيئًا علميًا، بلْ لكلِّ داعٍ من الحضاراتِ المُنوَّعةِ في العالمِ أسلوبٌ يَخُصُّه وينفردُ بِه، وهذا أمر طبيعى.[1]

ويضربُ المودوديُّ مثلاً من الحقائقِ العلميَّةِ يظهرُ من خلالِه الفرقَ بين التَّدوينِ الإسلاميِّ للعلومِ والتّدوينِ الإلحاديِّ لهَا: فالحقيقةُ العلميَّةُ التي تُقَرِّرُ أنَّ كلَّ شيءٍ عندما يَبرُدُ يتقلَّصُ ما عدا الماءُ، إنَّه إذا أَخذَ في التَّجمُدِ يمتدُ، وإذا أصبحَ ثلجًا خفَّ وزنُه، ولهذا السَّببَ نفسِه يطفو الثَّلجُ على سطحِ الماءِ. فالتَّعليلُ الإسلاميُّ لهذهِ الحقيقةِ العِلميَّةِ يقول: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي أَودَعَ في الماءَ هذه الخَاصِيَّةِ من دونِ سَائرِ الأشياءِ، واقتضَت حكمتُه تعالى وربُوبِيَّتُه ذلك، إذْ لو لم يُعطى الماءُ هذه الخَاصِيَّةَ لمَا عاشَتْ المخلوقاتُ في الأنهارِ والبِحارِ والمُحيطَاتِ، فلو أنَّه كلَّما تَجمَّدَ الماءُ رَسَبَ إلى أسفلٍ لتَحَولَّت الأنهارُ والبِحارُ والمحيطاتُ إلى جبالٍ متراكمةٍ من الثُّلوجِ التي تمنعُ حياةَ الكائناتَ. وأمَّا التعليلُ الإلحاديُّ لهذه الحقيقةِ فإنَّه يقولُ: إنَّ الماءَ له هذه الخَاصِيَّةُ، ولا ينسُبُها هذا التعليلُ إلى خالقٍ مُدَبرٍ حَكيمٍ عليمٍ".[2]

وأيضا ما بين خطة القول بمالية العلوم التجريبية ما تقوم به روسيا الشيوعية تجاه هذه العلوم، فانها تمنعُ تدوينها وتدريسها من خلالِ أيِّ وجهةِ نظرٍ تُخالِفُ الفكرَ الشيوعي الإلحادي، ولو أنَّها سمحت بذلك لانتقضَ النِّظامُ الشيوعيُّ من أَسَاسِهِ.[3]

وبيَّنَ المودوديُّ علاقةَ العلومِ التَّجرِيبيَّةِ بقضية الإيمانِ بالله تعالى، وحثَّ العلماءَ والأساتذةَ المسلمين على تَثبيتَ الإيمانِ في قلوبِ الجيلِ المسلمِ أثناءَ تدريسِهم لهذهِ العلومِ، فقال رحمه الله: "والواقعُ أنْ ليس هناك قسمٌ من أقسامِ العلومِ التَّجريبيَّةَ إلاَّ وفي إمكانِه أنْ يُرَسِّخُ في قلوبِ النَّاسِ الإيمانَ بالله رسوخًا عميقًا، خذوا من هذهِ الأقسامَ مثل: الفيزياءُ والكيمياءُ، وعلمُ وظائفِ الأعضاءِ، وعلمُ التَّشريحِ، وعلمُ أسبابِ الحياةِ وأحوالِها، وعلمُ الفلكِ. تجدونَها تكشفُ عن الحقائقِ المُدهشةِ التي فيها الكفايةُ لأنْ يكونَ الإنسانُ مؤمنًا بالله، صادقَ الإيمانِ، وليسَ من شيءٍ ادعى إلى الإيمانِ بالله من حقائقِ العلمِ. وهذه الآياتُ البيِّناتُ التي يُكَرِّرُ القرآنُ الإشارةَ إليها بينَ حينٍ وآخرَ. وبمَا أنَّ العلماءَ الكافرينَ دَوَّنُوا هذه الحقائقَ من وجهةِ نظرِهم انقلبَ الأمرُ ظهرًا لبطنٍ، فبدلَ أنْ يَرجِعَ منها الطالبُ بعقيدةِ

---

[1]– دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي ص 33–34.

[2]– انظر المصدر السابق نفسه ص 34–35.

[3]– انظر المصدر السابق نفسه ص 32–33.

التَّوحيدَ يصيرُ ماديًا ومنكرًا لوجودِ اللهِ تعالى، ويَضحَكُ منَ التَّصورِ القائلِ بوجودِ الإلهِ ويَسخرُ منه.[1]

وأمَّا العلومُ الأُخرَى، كالاجتماعِ والاقتصادِ، والتَّاريخِ والفلسفة، فالمودوديُّ يدعو إلى إخضاعِها لعمليَّةِ النَّقدِ الإسلاميِّ، وتدوِينَها بعقليَّةٍ إسلاميَّةٍ على أساسٍ من التَّصورِ الإسلاميِّ الصَّحِيحِ، لأنَّ هذه العلومَ منحرفةٌ في أُصولِها وفروعِها انحرافًا كُليًا عن مفاهيمِ الإسلامِ ومبادئِه وقيَمِه.[2] وهوَ يخافُ على الجِيلِ المُسلِمِ من الإقبالِ على دراستِها، وهي بهذهِ الحالِ، وإلاَّ لانجَرَفَ عن الإسلامِ ولتزَلزَلَتْ عقائدَهُ الدِّينيَّةَ من أَسَاسِها، يقولُ المودوديُّ: "ومَا لاَ يختلِفُ فيه اثنان أَنَّنَا مَدعوُّونَ إلى أنْ ندرسَ جميعَ المعارفِ من العلمِ – يقصدُ العلمَ التَّجريبِيَّ– والفلسفةِ والاجتماعِ، ومدعوُّنَ إلى أنْ ندرسَ كلَّ فرعٍ من فروعِها، ونُفيدُ من المَعلُومَاتِ التي وصلَ إليها الإنسانُ في أدوارِ التَّاريخِ. ولكنَّنَا إذا أَردنَا أنْ نَحيَا ونَبقَى مسلمينَ يَجبُ أنْ لاَ ندرسَ هذه العلومَ إلاَّ بعدَ أن نَجعلَهَا إسلاميَّةً. ولاشكَّ في أنَّ هذه العلومَ في إطارَها الرَّاهنِ تَجعلُنا غَيرَ مسلمينَ في النِّهايةِ شئْنَا أمْ أَبيْنَا.[3]

ويوجِهُ المودوديُّ نداءً إلى الحكوماتِ المُسلمةِ، يَلفتُ فيه أنظارَها إلى ضَرورةِ الانتباهِ إلى الكفرِ والإلحاد التي تدعو إليه العلومُ والمعارفُ الغربيَّةِ، ويدعوا الحكوماتِ المُسلمةِ إلى إنشاءِ المؤسَّسَاتَ العلميَّةِ الإسلاميَّةِ التي تقومُ بعمليِّةِ التَّدوينِ الإسلاميِّ لكافةِ العلومِ والمعارفِ، ويحذِّرُ هذه الحكوماتِ من التَّقاعدِ في أداءِ هذا الواجبِ، ذلك أنَّ الخطرَ يُهَدِّدُ المسلمين في عقيدتِهم وكيانِهم وشخصِيَّتِهم الإسلاميَّةَ.[4]

أمَّا بالنسبةَ للتَّطورِ الماديِّ الذي يشهدُهُ العالمُ الغربيُّ اليومَ، فإنَّ المودوديَّ لا يمانعُ في الاستفادةِ من الغربِ في هذا المجالِ، ولكنْ بشرطِ أنْ يَعملُ المسلمون على تَعدِيلِ مسَارِ هذا التَّطورِ، ليستطيعوا القيامَ بواجبِ خلافةِ الله تعالى في الأرضِ. ويردُّ المودوديُّ على الذين يَرَوْنَ عدمَ مسايرةِ التَّطورِ الماديِّ بِدَعْوَى متابعةِ السَّلفِ الصَّالحِ، فيقولُ: "وليسَ من التَّعليمِ الإسلاميِّ في شيءٍ أنْ نعيشَ في هذه الدُنيا كعادياتٍ أثريَّةٍ تَحيَا وتَتَنفسُ، ونعرِضَ حياتِنَا على أهلِ الدُنيَا كمسرحيَّةٍ تاريخيَّةٍ للتَّمدُنِ البائدِ، إنَّ الإسلامَ لا يُعَلِّمُنا الرهبانيَّةَ ولاَ التَّعبُدَ للقديمِ، ولا من غايتِهِ أنْ يُخرجَ في الدُنيا أُمَّةً لا تنفكُّ تُحاولُ منعَ التَّطورِ والارتقاءِ، بل هو يريدُ – بخلاف هذا– أنْ يُخرِجَ أُمَّةً تعملُ على عدلِ التَّطورِ والارتقاءِ عن الطُرقِ الخاطئةِ وتسييرِهِ على الطَّريقِ القاصدِ الصَّحِيحِ، فهو لا يُعطِينَا قالبًا بعينِه لا يَتبدَّلُ، بل هو يُزَودُنَا بالرُّوحِ، ويريدُ منَّا أنْ نَصُبَّ هذا الرُّوحَ في كلِّ ما يَتَجَدَّدُ من قالبٍ للحياةِ تَهُمُّنَا لتتيرَ الزَّمانِ

---

[1]– انظر المصدر السابق نفسه ص 36–37.

[2]– انظر نحن والحضارة الغربية ص 190.

[3]– دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي ص 37–38.

[4]– الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 291.

والمكانِ إلى يومِ القيامةِ. ولمَّا كنَّا جُعِلنَا في هذهِ الدنيا خيرَ أُمَةٍ، فمن رِسَالتِنَا في هذه الدنيا – من حيثُ إنَّنا مسلمون– أنْ نَتَولَّى القيادةَ والزعامةَ، لا أنْ نَنْجَرَّ كسَاقَةِ الجيشِ وراءَ السائرين في طريقِ الارتقاءِ إلى الأمامِ، وقد خُلقنُا حقًا لأنْ نكونَ في مُقدِّمةِ الجيشِ، ويكمنُ سِرُ كونِنَا خيرُ أُمَّةٍ في كلمةِ أُخرِجت للنَّاسِ.[1]

ويضيفُ المودوديُّ قائلاً: "إنَّ الأُسوةَ الحقيقيَّةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِه التي يجبُ علينا أنْ نَتَّبِعها الآنَ هي أنَّهم استخدموا القوانينَ الطبيعيَّةَ تبعًا للقوانينِ الشَّرعيَّةِ. فقاموا بخلافةِ اللهِ في الأرضِ أحسنَ ما يكونُ من القيَامِ، فَالتَّمدُنُ الذي كان يسودُ عصرَهُم حينئذ بثَّ هؤلاء في قَالبِه روحَ الحضارةِ الإسلاميَّةِ، وكلَّ ما كانَ قدْ وقعَ تحتَ يدَ الإنسانِ من القُوَى الطبيعيَّةِ اتخذَه هؤلاء خادمًا لتلكَ الحضارة. وكلُّ ما جاءَ به التَّمدُنُ من وسائلِ الغلبَةِ والرُقِيِّ استعملَه هؤلاء قبلَ أنْ يَستعملَه الكفَّارَ والمشركون، لكيمَا تكونَ حضارةُ القائمين بخلافَةِ الله غالبةً على حضارةِ الباغينَ على الله، وهذا هوَ الذي كانَ علَّمَهُم اللهُ تعالى في كتابِه، حيثُ قالَ: (وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا استَطَعْتُم) من الآية 60 سورة الأنفال، فكانوا أَرشدوا إلى أنَّ المسلمَ هو أَحقُّ وأَجدرُ من الكفارِ باستخدامِ تلك القوى التي خلقَها الله، بل المسلمُ هو وحدَه الحقيقُ بذلك.

ويضيفُ المدودوديُّ مبينًا موقفَ المسلمِ من الوسائلِ الماديَّةِ التي عرفتهَا الحضارةُ المعاصرةُ بناءً على ذلك كلِّه، فإنَّ الصُّورةَ الصَّحيحةَ لاتبَاعِ النَّبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم وأصحابِه اليومَ هي أنْ نأخذَ الوسائلَ التي قد تَتجدَّدُ بفضلِ ارتقاءِ التمدينُ واكتشافاتُ القوانينِ الطبيعيَّةِ، فنعملُ على تسخِيرِها للحضارةِ الإسلاميَّةِ كمَا فعلوا في العصورِ الأولى. إنَّ ما هنالِكَ من النَّجسَ والدَّنسِ ليسِ في هذهِ الوسائلِ بذاتِها، بل هو في تلكَ الحضارةِ الماديَّةِ الإلحاديَّةِ التي تُرَوَّجُ وتُنتَشرُ بقوةِ هذهِ الوَسائل".[2]

ثمَّ يَضربُ المودوديُّ أمثلةً لمخترعاتِ الحضارةِ المعاصرةِ التي لا يمنعُ الإسلامُ في استخدامِها لنشرِ الخيرِ والفضيلةِ، ومن أجلِ راحةِ الإنسانِ وسعادتِه، بعكسِ الغربِ الذي يَستخدِمُها لترويجِ الفَحشَاءِ والمُنكرِ، ولنشرِ الخلاعةِ والرَّذيلةِ، وفي ذلك شقاءُ الإنسانِ وهلاكِه، يقولُ: "فالإذاعةُ ليستْ بشيءٍ نَجسٍ في نفسِها، وإنَّما النجسُ هو الحضارةُ التي تجعلُ مديرَ الإذاعةِ ناشرًا للخلاعةِ والمجونِ، ومناديًا للأكاذيب والأضاليل. وليستْ الطائرةُ بشيءٍ نجسٍ، إنَّما النجسُ هو الحضارةُ التي تستخدمُ الطائرةَ ملكَ الهواءِ هذا تبعًا لمغرياتِ الشَّيطانِ بدلاً من مرضاةِ الرحمَنِ. وليست السِّينَما كذلك شيئًا نَجسًا، وإنَّما النجسُ في الحقيقةِ هو الحضارةُ التي تستعملُ هذه القوةَ الفعالةَ من خلق الله لإشاعةِ الوقاحةِ والفحشاءِ في

---

[1]– يشيرُ إلى قوله تعالى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ....) آل عمران: 110.

[2]– نحن والحضارة الغربية ص 337.

النَّاسِ. وليسَ السببُ في رَواجِ هذه الحضارةِ النَّجسَةِ وانتشارِها في الأرضِ سوى أنَّ أصحابَها لا يزالون يستخدمونَ لنشرِها وترويجِها كلَّ ما خلقَ الله من القوى الطبيعيَّةِ التي اكتشفها الإنسانُ إلى الآن. فإن كنَّا نريدُ الآنَ أنْ نقومَ بهذا الواجبِ الذي يقعُ علينا لنشرِ الحضارةِ الإلهيَّةِ في الأرضِ، فلابدَّ أنْ نستخدمَ نحنُ أيضًا تلكَ القوى الطبيعيَّةَ. إنَّ تلك القوي مثلُها مثلُ السَّيفِ، كلٌّ من استعملَه انتصرَ، سواءٌ أكانَ استعمالُه لغرضِ خبيث أو مقصد شريف.[1]

وعن السِّينمَا والتلفزيونِ يقولُ المودوديُّ في موضعٍ آخرَ: "ما هي إلاَّ طاقاتٍ خلقها الله، ولا عيبَ فيها من حيثُ هيَ، وإنَّما الفساد في الانتفاع بها على وجهٍ يُحطِّمُ أخلاقَ الإنسانِ، وقيمَه السَّاميَةِ، ووظيفةُ الدَّولةِ الإسلاميَّةُ أنْ تستخدمَ هذه الوسائلَ، وتنتفعَ بها لتوفيرِ سعادةِ الإنسانِ وفلاحِه في الدُنيا والآخرةِ، وتُغلَقَ بابَ الاستمتاعِ بها على وجهٍ يَملأُ الدنيا فسادًا وشقاءً.[2]

---

[1]– المصدر السابق ص 338.

[2]– الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص 261.